سلسلة الإبداع العربي ٨

الإصدار الثاني

يؤنثُ الفراغَ ويضحكُ

حميد العقابي

الهيئة المصرية العامة للكتاب

يؤنث الفراغ.. ويضحك قصص حميد العقابي

يؤنّثُ الفراغَ.. ويضحكُ

الهيئة المصرية العامة للكتاب

رئيس مجلس الإدارة
د. هيثم الحاج على

رئيس الإدارة المركزية للنشر
د. سهير المصادفة

التصميم الأساسى للغلاف
صابرين مهران

تصحيح لغوى
أحمد اللاوندى

متابعة
سحر محجوب

سلسلة (الإبداع العربى)
تصدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب شهرية.
تعنى نشر إبداع الكتاب العرب من غير المصريين
الكتاب: يؤنث الفراغ .. ويضحك
المؤلف: حميد العقابى
ط - أولى ٢٠١٧

ص.ب ٢٣٥ رمسيس
١١٧٩٤ كورنيش النيل، رملة بولاق، القاهرة
الرمز البريدى: ١١٧٩٤
تليفون: ٢٥٧٧٥١٠٩ (٠٠٢) داخلى ١٤٩
فاكس: ٢٥٧٦٤٢٧٦ (٠٠٢)
GENERAL EGYPTIAN BOOK ORGANIZATION
P.O Box. 235 Ramses
1194 Cornich El Nil - Boulac - Cairo
P.C: 11794
Tel. +(202) 25775109 Ext: 149
Fax. +(202) 25764276

website: www.egyptianbook.org.eg
E-mail: hetabgebo@gmail.com
www.gebo.gov.eg

الطباعة والتنفيذ
مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

سلسلة «الإبداع العربى»
(الإصدار الثانى)

رئيس التحرير
سمير درويش

مدير التحرير
عادل سميح

سكرتير التحرير
وردة عبد الحليم على

الإخراج الفنى
أيمن مرجان

العدد (٨) - الإصدار الثانى
أبريل ٢٠١٧

الآراء الواردة فى هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الهيئة
بل تعبر عن رأى المؤلف وتوجهه فى المقام الأول

حقوق النشر والطباعة محفوظة للهيئة المصرية العامة للكتاب.
يحظر إعادة النشر أو النسخ أو الاقتباس بأية صورة إلا بإذن
كتابى من الهيئة المصرية العامة للكتاب، أو بالإشارة الى المصدر.

مكتبة
حسين السكاف
موبايل : 0045 27440907

يؤنّثُ الفراغَ.. ويضحكُ

قصص

حميد العقابى

الهيئة المصرية العامة للكتاب
2017

يؤنّثُ الفراغَ.. ويضحكُ

قصص

حميد العقابى

الهيئة المصرية العامة للكتاب
2017

العقابى .حميد .
يؤثثُ الفراغَ . . ويضحكُ/ العقابى .حميد .
الهيئة المصرية العامة للكتاب
؟؟؟ ص، ٢٠سم - (سلسلة الإبداع العربى،٢)
تدمك
١-
أ-

رقم الإيداع بدار الكتب / ٢٠١٧
I.S.B.N 978 - 977-

منْ قصاصاتِ ورقٍ يخلقُ نسوراً
يُدرِّبُها على يديه
يُطلقها في فضاءِ العُزلة
ويضحكُ
حين يراها تنقضُّ على اللاشيء

اللعبة

فُتحَ بابٌ وبحركة آلية يتقنها السجّانُ جيداً اندفعتُ إلى داخل الزنزانة. ضربة عند أعلى الرقبة من كفٍّ عريضة مثل رفشٍ هي التي حددتْ لي اتجاهي في عمقِ الظلمة لأجدني متكوِّمًا على نفسي قُربَ جدارٍ رطبٍ ثم شيئًا فشيئًا بدأت العينُ باختراقِ العتمةِ لتظهرَ وجوهُ السُّجناءِ كأنها خارجةٌ منْ وادٍ مظلم.

"هل تشاركنا اللعب؟"

قال السجينُ الذي يجلسُ لصقي بعد أنْ أخرجَ رأسه من بين ركبتيه وقد كان متكوِّرًا على نفسه حتى حسبتُه كتلةً صمّاء. تطلعتُ إليه بصعوبةٍ فرأيتُ عينيه مضيئتين كعيني قطٍّ في الظلمة. حاولتُ أنْ أمتنعَ عنِ الإجابةِ إلا أنّه راحَ يهزّ ذراعي بقوةٍ وهو يكرِّرُ بتوسلٍ:

"ها ماذا قلت؟ هل تشاركنا اللعب؟"

"وماذا سنلعب؟"

قلتُ بتذمرٍ فتطلعَ إليَّ وارتسمتْ على شفتيه ابتسامةُ حزنٍ ثم نهضَ وراح يخلعُ قميصه بسرعة:

"انظرْ هل ترى هذا القميص؟"

هززتُ رأسي وأنا أنتظرُ بقلقٍ كي يوضحَ لي ما يقصد. جلس

مقرفصاً أمامي حتى لامستْ جبهتُه جبهتي وقد كوّرَ قميصه بين قبضتيه:

"هل تراهن كم قملة في هذا القميص؟"

حاولتُ أنْ أنطقَ بكلمةٍ إلا أنَّ حشرجةً في عنقي منعتني وقبل أنْ انفجرَ في البكاء وجدتُ بقيةَ السجناء قد تجمّعوا حولنا منقسمين إلى فريقين وراحوا يراهنون بتحمسٍ ولأني سجينٌ مستجدّ كما وصفوني فقد نُسبتُ إلى أحدِ الفريقين قبل أنْ يأخذوا رأيي في اختيارِ الفريقِ الذي أرغبُ في الانتسابِ إليه.

"فردي."

"زوجي."

وضعَ القميصُ مركزاً للدائرة وراحَ الجميعُ يحدقون إليه بجنون وكلما التقطَ أحدهم قملةً رفعها أمامَ خيطِ الضّوء المتسربِ من الفتحة الصغيرة الموجودة في أعلى الجدار ثم راح يقصعها بزهوٍ ويعاود البحثَ عن أخرى.

تلك كانت التجربةُ الأولى لي في السجن ومع تكرار الأمرِ رحتُ أكتشفُ ألعاباً أخرى ولأنها لم تجد هوى عند الآخرين أو في أحيان كثيرة كنتُ أسجنُ في زنزانة انفرادية لذلك كنتُ أراهن وحدي فاكتشفتُ لعبةَ التأمل والحديث مع الجدران أو أمارسُ لعبةَ استفزازِ الذاكرة. وحينما مللتُ من إعادة الماضي رحتُ أحاولُ تطويرَ اللعبة بأنْ أُعيدَ حادثةً من ماضيَ وأتوقف عند نقطةٍ لأغيّر مجرى الحكاية أو أصححَ خطأً وقعتُ فيه لتأخذَ سيرتي الذاتية منحى يختلفُ عن

حقيقتها حتى أصبحتْ لي سيرةٌ ذاتية تختلفُ عن سيرتي الحقيقية بل لم أعدْ أتذكر ماضيَ إلا وفقَ ما اجترحته مخيلتي. أما أحلامي المستقبلية فقد اقترحتُ على نفسي منذ بدء اللعبة أنْ تكونَ صغيرةً وبعيدةً عن الواقع وكيلا يغريني الطمع فآخذُ جرعةً كبيرةً من ترياقها فتودي بي إلى الموت أو الجنون بعبارةٍ أخرى أردتُ لها أنْ تكونَ أقربَ إلى الوهمِ منها إلى الحقيقة مع إدراكي بأنها لن تتحقق أو تخيب.

هكذا...

أفتحُ بابًا في الجدارِ وأدخلُ:

"ما أسهلَ الوهمَ!"

غرفة في اللامكان مضاءةٌ بشموعٍ وتعبقُ فيها رائحةُ بخور مفروشة بسجادٍ ناعمِ الملمس ومحاطة بوسائدَ حريرية جدرانها مرايا وسقفها سماء مرصّعة بنجومٍ ساطعة. صوتٌ يناديني فالتفتُ لأجدَ نفسي جالسةً في ركنٍ من أركانِ الغرفة. تشيرُ إليَّ أنْ أتقدمَ. تنهضُ لاستقبالي تقدّمُ لي باقةَ وردٍ أشمّ فيها رائحةَ نهرٍ (إنه النهر نفسه.. ذلك النهر الذي سرقوه من طفولتي يومًا وأجبروني على الرحيل بزورقٍ مثقوبٍ على اليابسة).

"هل عاد النهرُ إليَّ؟"

"الله ما أعدلَ الوهم!"

أجلسُ قربَ نفسي ودونما شعورٍ أستلقي واضعًا رأسي على فخذها فتضعُ يدها على رأسي تداعبُ شعري بحنو:

"دللول يا الولد يبني دللول... عدوك عليل وساكن الجول"

"الله ما أكرمَ الوهمَ!"

وحين أُفيقُ سأجدُ كلَّ المرايا مهشمةً وعلى أجزائها ارتسمتْ أشلاءُ وجهي.

"لا لا تخفْ! إنه محضُ وهم".

وكما قلتُ إنَّ الأحلام للسجين كالأفيون وقد أقنعتُ نفسي بالقليل محذّرًا إياها من الإفراط.

حينما غادرتُ آخرَ سجنٍ منذ أكثر من خمسٍ وعشرين سنة قلتُ سآخذ استراحةً من الأحلام وسأتحررُ من آثارِ السجن فقد أخبرني أكثرُ من شخصٍ مرَّ بالتجربة نفسها بأنَّ فكرةَ الهرب التي تراودُ السجين في أحلامه ستزولُ شيئًا فشيئًا بعد أنْ يتحرر غير أني وإنْ كنتُ طليقًا إلا أنَّ شيئًا غريبًا يشدّني إلى السجن ولم تزلْ فكرةُ الهرب تراودني حتى وأنا في أسعدِ اللحظات وفي أجملِ الأماكن. أهربُ من يقيني من شكّي من أوصالي من فرحي من حزني من شوقي من عشقي من بغضي من ظلّي من نفسي من صوتي... حتى وجدتُني في هروبٍ دائم.

"هل تشاركني اللعب؟"

انتبهتُ إلى جهةِ الصوتِ فرأيتُ صاحبي نفسه يقفُ أمامي منكسرًا وهو يكرر:

"ها ماذا قلت؟ هل تشاركني اللعب؟"

لا أدري لماذا فرحتُ فرحًا شديدًا لرؤيته على الرغم من أنه لا

يشكّل في ذاكرتي سوى لحظات تعيسة من ماضٍ أحاولُ أنْ أهربَ منه فقلتُ دون ترددٍ وكأني أعيدُ الزمنَ أكثر من خمسٍ وعشرين سنة:

"وماذا نلعب؟"

قلتُ بلهجةٍ يختلط فيها الودّ بالسخرية وأنا أتطلعُ إلى كفيه اللتين أخفيتا شيئًا حسبتُه قميصًا. وحينما هززتُ له رأسي موافقًا على الرهان رغبةً مني لإعادة ذكرى غابرة قعد على الأرض ونشرَ خريطةَ العالم أمامه وقبل أنْ ينطقَ بسرّ اللعبة أوقفتُه بحركةٍ من يدي فتطلعَ إليّ مستفسرًا عن سبب انفعالي المفاجئ فأشحتُ بوجهي عنه بكبرياء وتجاهل. حاولَ أنْ يُغريني بلعبته إلا أني رفضتُ بإصرار وحينما يئسَ من إغرائي قال كأنه يتشبثُ بآخرِ خيطٍ للأمل وربما كان يحاولُ أنْ يدافعَ عن نفسه بوجه ما حسبه ترفعًا مني فجاء كلامه لا يخلو من السخرية:

"ولكنكَ مازلتَ سجيناً!"

قلتُ بعناد:

"ربما ولكن لي ألعابي الخاصة"

ارتفعتْ ضحكته ولاحتْ على وجهه علاماتُ خبثٍ وعداء. تقدم نحوي ناشرًا ذراعيه كأنه يهمّ باقتناصِ طائرٍ محاصرٍ في زاوية. تملصتُ من بين قبضتيه وهربتُ وحينما أدركتُ أني ابتعدتُ عنه بمسافة تمنعه من اللحاق بي توقفتُ. التفتُ إليه فوجدتُه واقفًا ويشيرُ إليّ بسخريةٍ ويضحك. شعرتُ بغيظٍ جعلني أفكرُ بالعودة

إليه لأنشبَ أظافري في عينيه وحينما اقتربتُ منه توقفَ عنِ الضَّحك وبوجه تلوحُ عليه علاماتُ الجدَ سألني:

"ألستَ القائلَ: قد تسكنُ الديدانُ حلمًا في أعينِ الغرباء؟"

"بلى"

أجبتُ دونما وعي ودون أنْ تخطرَ في ذهني تلك اللحظة كيف أنه عرفَ أني قائلُ هذا المقطع الذي استيقظَ معي اليومَ ورحتُ أردده مع نفسي كمفتتحٍ لقصيدةٍ جديدة فارتفعتْ ضحكته مرةً أخرى. هجمتُ عليه وخلتُني قد اقتنصتُه غير أنه تسربَ من بين أصابعي مثل حلمٍ عابرٍ أو ربما وهم من أوهامي الكثيرة.

البديل

استيقظتُ صباحًا واستيقظتْ معي فكرة قد تبدو غريبةً للبعض ولكنها ليست غريبة بالنسبة إلي فقد كانت تلحّ عليّ دائمًا ولكنها نضجتْ هذا الصباح وأصبحتْ جاهزةً للتطبيق. الفكرة بسيطة للغاية وهي خلقُ بديلٍ لي يتولى كلّ مهامي اليومية وما عليّ سوى مراقبته وربما إبداء بعض الملاحظات. ولأني غير متزوج ولا أفكر في هذا الأمر إطلاقًا فقد كنتُ مطمئنًا أنه لن يسلبني شيئًا أندم عليه ولن أشعرَ بالغيرة منه بل على العكس سأحمله أوزارَ أخطائي السابقة واللاحقة وأقعدُ في الركن أراقبه وهو يحملُ على كتفيه صخرةَ أخطائي وأضحكُ. أعترفُ أنها فكرة مجنونة لشخصٍ أعزل بلغتْ به أوهامُ وحدته أنه لم يعد يطيق كلّ الأشياء ونقائضها.

مرّ النهار دون أن يحدثَ شيءٌ خارج دائرة المألوف سوى مكالمة هاتفية واحدة ردَّ عليها بلباقة أثارتْ إعجابي به وبنفسي لنجاح الخطة بشكل غير متوقع حتى أني لم أجد أية غرابةٍ في رده على سؤالي عن الشخص الذي اتصل بي.

"لا أحد".

قال دون أن يلتفتَ إليَّ وراح يعيد ترتيب الكتب على رفوف المكتبة مصفرًا لحنًا غريبًا لم أسمعه من قبل فعدتُ لإتمام قراءة

الرواية التي بدأتُ بقراءتها أمس.

شعرتُ بالنعاس فنهضتُ بتثاقلٍ وقبل أن أترك الصالة إلى غرفة نومي أوقفني بحركةٍ من يده وهمَّ كي يقولَ شيئًا فأشرتُ إليه أن يصمت كي أجرّبَ حدسي وفراستي فقلتُ مازحًا:

"لعلكَ تريد أن توقف اللعبة أو تفكر بخلق بديلٍ لك ؟!"

ارتفعتْ ضحكته وأطالها مبالغًا في السخرية مما قلتُ ثم تطلعَ إليّ بنظراتٍ جادة وقال:

"لا لا أفكر في ذلك إطلاقًا"

توقفَ قليلاً لكي يجعل لما سيقوله وقعًا أكثر تأثيرًا (هكذا حسبتُ) ثم أضاف بلهجة استفزازٍ وقحة:

"لم يبلغ بي الجبن هذا الحد كي أفكرَ بخلقِ بديل لي وأهرب".

وارتفعتْ ضحكته ثانيةً.

هممتُ بالانقضاضِ عليه وسحقه إلا أني تداركتُ حماقتي فتماسكتُ كيلا أعطيه الفرصةَ للتمادي أكثر فقلتُ له برزانةٍ وصرامة:

"إذن قلْ لي ماذا كنت تريد أن تقول؟"

هزَّ رأسه بكبرياء ونظراته تغور عميقًا فيّ:

"ما أردتُ أن أقوله أمر بسيط للغاية..."

توقفَ عنِ الكلام فأثارَ في نفسي قلقًا وخوفًا. رحتُ أحثّه على الاستمرار في الكلام. تطلعَ إليَّ بعينين تتقادحان ولكن برباطة جأش وعزّة قال:

"ما جدوى وجودكَ الآن؟"

الجدار

قيل:

"هنا تحت هذا الجدار تمامًا يكمن الكنز".

قهقهَ شابٌ مخمور مستهزئًا فنهرهُ شيخٌ نجا بالفلك مع نوح مستغفراً ومحذّراً أهالي المدينة من الإساءة إلى حرمة الجدار الذي يحفظُ لنا الكنزَ حتى يحينَ موعد إخراجه.

كنّا صغاراً نذهبُ إليه بغفلة من أهلينا ونلعب عنده ونمتطيه أو نكتب عليه بعض العبارات والفضائح التي تُحدثُ في اليوم التالي ضجةً كبيرة بين الناس ظنًّا منهم بأن الجدار يتكلم. مرةً تجرأ أحدنا وبالَ عليه ثم هربنا ورحنا نراقب عن بعد ما سيحدث ولم يحدث شيء طبعًا. وحينما سخرنا من كرامته أمام الكبار نهرونا بشدةٍ محذرين إيانا من (شارةِ) الجدار الذي يحفظ لنا الكنز ويحمينا من الغيلان التي تتربصُ بنا في الليل والنهار.

وهكذا صار الجدار مزاراً يأتون إليه من الأرياف والمدن الأخرى بالنذور. يوقدون عنده الشمع والبخور ويمسحون آجرَه المتآكل بوجوههم وأكفهم المرتعشة رهبةً ومع مرور السنوات أطلقَ على الجدار (مقام السيد غريب) ورُويتَ عن كرامة هذا السيد أشياء تفوق الخيال بل وفي بعض الأحيان كان يقينُ الكافرِ الواثقِ من كفره

يتزعزع أمام ما يُرْوَى عنه والدموع تهطل من عينيه بغزارة.

حينما اقتحم الغزاةُ المدينةَ اتخذَ رجالُ المقاومة من الجدار متراسًا وقد قيل إنَّ رَصاصَ الغزاة كان يرتدّ عنه بل إن الجدار نفسه كان يطلقُ الرصاصَ على الجنود وأردى منهم الكثير مما جعل زحفهم على المدينة يتأخر ثلاثة أيام. ولأن الغزاة لا يعرفون السيد غريب ولا يؤمنون بكراماته ويسخرون من معتقداتنا وطقوسنا المتخلفة فقد وجَّهوا مدافعهم نحوه فانهارَ الجدارُ مع أول قذيفةٍ أصابته دافنًا جثثَ الذين احتموا خلفه. هرعَ سكان المدينة كلها يزيحون الركام بحثًا عن الكنز على الرغم من وقوف شيوخ المدينة سدًّا مانعين الغوغاء من الاقتراب من موقع الجدار وحينما لم يجدوا شيئًا عادوا إلى بيوتهم يسخرون من أنفسهم.

في اليوم التالي أشيع في المدينة بأنَّ الغزاة سرقوا الكنز وقال آخرون بأنهم لم يسرقوه ولكن شُبِّهَ لهم وتجرأ بعض شباب المدينة وأعلن بأن لا وجود للكنز أصلا. ولكي يطووا صفحةَ الجدار والكنز سريعًا ويريحوا أنفسهم من تأنيب الضمير بسبب تقاعسهم عن التضحية من أجل معتقداتهم اتفق الجميع على أن يتركوا الأمر إلى الأجيال القادمة لتكشف سرَّ اختفاء الكنز.

وقفنا متراصين على الخطّ بانتظار طلقة البدء. كان عدد المتسابقين كبيراً لذا فقد راحوا يتدافعون بالمناكب والسيقان لاحتلال موقعٍ متقدم على خط البدء. ولأني لا أجيد التدافعَ والتحايلَ فقد انسحبتُ من الصف الأول إلى الثاني ثم الأخير. لم أسمعْ طلقة البدء ولكني انطلقتُ حينما رأيت الآخرين قد انطلقوا.

كانت البداية صعبةً حيث إنَّ قدميَ كانتا ملتصقتين بالأرضِ وبصعوبة بالغة استطعتُ تحريرهما من دبقِ الأديم وانطلقتُ ولكن بعد أن أصبحت المسافة بيني وبين الآخرين أكثر من نصف لفّةٍ على المضمار.

"بداية غير موفقة".

قلتُ لنفسي لكني كنتُ عازمًا على المواصلة بل لأني كنتُ أشعرُ بأنْ لا مفرَ من مواصلة السباق على الرغم من تخلفي وسخرية المتفرجين الجالسين على مدرجات الملعب. حاولتُ اللحاق بمؤخرة الطابور فأسرعتُ بأشد ما أتمكن لكن كلما ازدادتْ سرعتي اتسعت المسافة بيني وبين المتسابق الأخير (أعني ما قبل الأخير). فكرتُ بتركِ السباق والخروج من المضمار خاصة بعد أن استطاع الآخرون أن يلفّوا دورةً كاملة ويلحقوا بي وارتفع صراخُ المتفرجين

بالسخرية وهم يشيرون إليّ بأيديهم للخروج من المضمار إلا أن العناد قد استبد بي ورحت أواصل الركض وقد أغمضت عيني كيلا أرى المتسابقين وهم يجتازونني بعد أن يكملوا لفتين أو ثلاث. حافظتُ على وتيرة سرعتي دون التفكير بالفوز أو الخسارة ورحتُ أركض.

فتحتُ عينيَّ حينما انتبهتُ إلى الصمت الذي عمّ المدرجات فوجدتها خالية من متفرجين وكذلك المضمار كان خاليًا من المتسابقين.

"هل انتهى السباق؟"

سألتُ نفسي بحيرةٍ ساخرًا من نفسي لغفلتها عندئذٍ قررتُ أن أتوقفَ عن الركض ولكني لم أستطع حيث إن ساقيّ لم تطاوعاني بل نسيتُ كيف يمكن لي أن أتوقف فواصلتُ الركضَ رغمًا عني.......

....

.

ومازلتُ راكضًا.....

القطار

"ألو.. ألو.."

كان الخط مفتوحًا ولكن لا أحدَ يتحدث. كادتْ تنطلقُ من فمي شتيمةٌ ولكني تداركتها وقبل أن أطبق السماعة سمعتُ صوتًا غريبًا. رفعتُها إلى أذني ثانية فسمعتُ لهاثًا أو زفيرًا راح يرتفع شيئًا فشيئًا حتى تحول إلى نشيج أنثوي فحسبته صادرًا عن امرأةٍ مخمورة قد أخطأت برقم تلفوني.

"ألو.. ألو.."

ارتفعَ صوتُ سعالٍ مفتعلٍ فتأكدتُ أنها تتهيأ للحديث ثم جاء صوتها مغناجًا يناديني باسمي مجردًا عن أية صفة. هممتُ أن أقولَ شيئاً إلا أني توقفتُ مُصغيًا باهتمامٍ إلى همهماتها وأنفاسها المتقطعة وارتفاعِ صوتِ نشيجها الذي أثار فضولي لمعرفةِ هذه المرأة التي تعرفني لعلها بحاجةٍ إلى مساعدةٍ لم تجدْ في هذا الليل مَنْ يقدّمها إليها فالتجأتْ إلي.

"ألو.. ألو.."

رددتُ بنبرةٍ عالية وبنفاد صبر فجاءني صوتها واضحًا:

"نعم.. آسفة على إزعاجك في هذا الساعة المتأخرة من الليل ولكني مضطرة لذلك".

توقفتْ قليلاً فقلتُ:

"لا أبدًا أنا مازلتُ مستيقظًا. أهلًا وسهلًا".

ولكي أنهي المكالمة قلتُ لها محاولًا إعادة نبرةِ صوتي الهادئة:

"هل أستطيع مساعدتك بشيء؟"

"لا أنا بخير ولكني قلقتُ عليك".

حاولتُ أن أجدَ عبارةً أرد بها لكنّ شعوراً غريبًا انتابني فقد جاءتْ عبارتها "قلقتُ عليكَ" كصوتٍ نابعٍ من أعماقي وقد كنتُ فعلًا أشعر ومنذ استيقاظي من الكابوس بأسى وحالة فقدان التوازن جعلتني أقضي يومي كله في الشقّة. ولكيلا أظهرَ ضعفي أمام امرأة لا أعرفها حاولتُ أن أعيد توازني فقلتُ لها بكبرياء مفتعلة.

"شكرًا على قلقك".

لكن سرعان ما تهاوتْ كبريائي لسببٍ أجهله حينما أضفتُ:

"فعلًا أنا اليوم بحاجة إلى مَنْ يقلق عليّ".

وقبل أن أسمحَ لها بأن تستغل نقطة ضعفي أضفتُ:

"ولكن... أنا لا أعرفك".

ارتفعتْ ضحكتها محاولةً إطالتها لتفتعل الثقة. حاولتُ أن أجاريها بالضحك مقهقهًا. قالتْ:

"أنا سيدة عراقية أقيم بالدنمارك منذ عشرة أعوام..."

"أين بالدنمارك؟"

"بكوبنهاكن".

وقبل أن أقولَ شيئًا أضافتْ كأنها تعرف ما دارَ في ذهني:

"نعم بيننا عشرون دقيقة بالقطار".

كان أول شيء فكرتُ فيه بعد أن أطبقتُ سماعة التليفون هو الإسراع بترتيب غرفة النوم. استبدلتُ الشرشفَ العتيق بآخر احتفظتُ به للزيارات المفاجأة وحشرتُ الملابسَ المتكدسة على الأرض في الخزانة. فتحتُ النوافذ لتغيير الهواء المتعفن ورائحة الدخان ورحتُ أزرع الشقة مردداً أغنيةً عراقية منسية.

اتصلتُ بها على الرقم المحفوظ بذاكرة تليفوني فلم أتلق جوابًا:

"هذا يعني أنها غادرت البيت وهي في طريقها إليّ".

وقفتُ عند النافذة الكبيرة أتطلع إلى الأفق المبهم. كان الثلجُ يهطل بغزارة فلم أعد أرى الشارع سوى دوائر ضوء صغيرة تنبعث منها أشعة خافتة لأجساد صغيرة تتحرك وعلى الرغم من أني أقيم في هذه الشقة منذ عشرين عامًا إلا أني شعرتُ ولأول مرة بالخوف.

"لماذا لم تخطر في ذهني فكرة القفز من الطابق الخامس عشر على الرغم من أن فكرة الانتحار لم تفارقني يومًا؟"

"ألو.."

سمعتُ صوتها وقبل أن أحييها ارتفعتْ ضحكة جذلى أنعشت روحي فشعرتُ بارتعاشةٍ في جسدي كله.

"أين أنت الآن؟"

سألتها بلهفة من انتظرَ سنواتٍ طويلة فجاءني صوتها بغنج:

"احذر؟"

وارتفعتْ ضحكتها ثانيةً.

"في اللامكان".

قلتُ كأني أحاولُ تذكيرها بأني شاعر فجاء ردها:

"أنا الآن في القطار الذي انطلق قبل خمس دقائق".

"سأنتظرك في المحطة".

قلتُ غير أنها ردتْ بثقة:

"لا.. لا أنا أعرف العنوان".

وأغلقت الخط.

امتدتْ يدي تحلّ أزرارَ قميصي لتوقظَ شيئًا في صدري كان نائمًا خمسين عامًا.

ثلاثُ ساعاتٍ مرّتْ ولم تصل. هل ضلّت الطريق؟ هل غيّرتْ فكرتها؟ هل صحتْ من حلمها؟ هل أنهت اللعبة؟...

"ألو..."

"....."

"أين أنت؟ قلقتُ عليك".

ارتفعَ صوت لهاث وتأوه ثم قالتْ بصوت محتضر:

"أنا مازلتُ في القطار ولكنَ القطار عاطل"

"خذي قطارًا آخر".

قلتُ بإلحاحٍ فجاءني صوتها باردًا:

"لا.. سأبقى في هذا القطار إلى أن يصل"

توقفتُ قليلاً كي أستوعبَ هذه الفكرة الغريبة التي أسرتني ثم سألتها بلهجةٍ لا تخلو من السخرية:

"وأين ستصلين؟"

"إلى اللامكان".

أجابتْ بسرعةٍ كأنها قد هيّأت الإجابة مسبقًا وأغلقتِ الخط.

القتلة

استيقظتُ قتيلًا. تلمستُ جرحي مازال نازفًا على الرغم من أن دهرًا قد مرّ على موتي. حملتُ سكينًا لا أدري كيف حصلتُ عليها وهرعتُ إلى الشارعِ باحثًا في الوجوه عن قاتلي.

كان كلّ شيء يبدو في الوهلة الأولى هادئًا غير أن نُذُرًا بالشرّ تلوح في الفضاء الذي امتلأ عفونةً وزنخًا وكلما توغلتُ في المدينة أكثر تلمستُ غموضًا يلفّ الأشياء. كنتُ أشعرُ كل لحظة بأن حيوانًا خرافيًّا يوشك أن يثبَ أمامي أو خلفي وخلف كلّ صخرة فخًّا يتربص بي.

المدينةُ ليستْ كما عهدتُها فقد غدتْ أطلالًا وخرائبَ شوارعها ضيقة وأرصفتها متاريسُ مهجورة كأن حراسها فرّوا من معركةٍ خاسرة ساحاتها وحدائقها تحولتْ إلى مكبّات للنفايات وجثث الحيوانات النافقة والنهر؟! أين ذلك النهر العظيم الذي كان يشطر المدينة نصفين فيضفي عليها هيبةً ورقّة؟! كيف اختفى؟ وهل يمكن أن يختفي نهر عمره بعمر الكون؟

الناس جميعًا يرتدون أقنعةً غريبة وأجسادهم مصفحاتٌ مزوّدة بمدافعَ ثقيلة مشرئبة نحو السماء كأنها على أهبة الاستعداد لإطلاق قذائفها على كوكبٍ بعيد أو إلهٍ منزوٍ في الأعالي.

"هل ابتدأتْ حرب أخرى؟"

رددتُ مع نفسي ورحتُ أبحثُ عن ملجأ.

ركضتُ.. ركضتُ.. في كل اتجاه متحاشيًا الارتطام بهياكلَ كان يجسّدها الخوف أمامي وفي زقاق ضيّق شاهدتُ عجوزًا يحمل سكينًا حسبتُه مثلي قد استيقظ توًّا من موته وها هو يبحثُ عن قاتله. صدقَ حدسي حينما اقتربَ مني هامسًا:

"لنهربْ إلى موتنا لئلا نُقتلَ مرةً أخرى".

صدّقتُه... وهربتُ.

البوصلة

أيقظني مفتشُ القطار وهو يخبرني بالوصول إلى المحطة الأخيرة. فركتُ عينيّ ونهضتُ بثقةٍ محاولًا إيهام الرجلِ بأني لستُ ضائعًا أو مخمورًا. كانتْ أضواءُ المحطة مطفأةً والثلجُ قد غطّى الأرصفة ومازال يهطلُ بغزارة. أُغلقتْ صالةُ الانتظار فلم يكن أمامي سوى الوقوف على رصيف المحطة بعد أن اختفى آخر القطارات. أين اختفى؟ لا أدري.. فخطًا السكة ينتهيان هنا عند الجدار.

"أقصى الشمال".

رددتُ مع نفسي مفتعلًا أسى مَنْ فاجأه الأمر.

أضيئتْ نقطةٌ في عمق الظلمةِ على مسافة بضعة أمتار فلاحَ لي وجهُ كائنٍ بشري كأنه معلّق في الظلام بخيوطٍ سوداء. شعرتُ بشيء منَ الأمان لوجود هذا الكائن. اقتربتُ منه على ضوء غليونه حتى أصبحتُ على بعد مترين منه. وضحتْ لي صورته كاملة رجلٌ رثّ الهيئة كثّ الشعر واللحية من الكائنات البشرية الضائعة التي يطلق عليها هنا الـ hjemelos أو الـ homeless كان مفترشًا الأرض ملتحفًا ببطانية ممزقة وعلى جانبه عربة أطفال محشوة بأكياس نايلون وخرقٍ وصندوق بيرة.

"كانتْ هنا ثم ذهبتْ بعد أن أتعبها الانتظار".

قال دون أن ينظر إليّ. أدركتُ قصده فأجبته بكلامٍ يصطنع الشكوى والتبرير:

"ولكني وصلتُ في الوقت المحدد".

ارتفعتْ ضحكته فشممتُ رائحة فمه النتنة.

"ما الذي يضحكك؟"

سألتُ باستهجانٍ وقرف فردَّ عليَّ وقد توقفَ عَنِ الضحك:

"أيها الرفيق المستجد بحق الشيطان.. قلْ لي.. كيف يمكن تحديد الوقت؟.. هه.."

"ماذا تعني؟"

رمى البطانية عن كتفيه وبحركة كحركة طفلٍ يحاولُ التخلص من قماطه مزّق كيسًا أسودَ من أكياس القُمامة كان قد أدخل نصفه السفلي فيه. اقتربَ مني مترنحًا حتى كاد أنفه يلامس أنفي. انسحبتُ إلى الوراء خطوتين فتشبثَ بكتفي وسحبني نحوه. حدّق إليّ بعينين حمراوين لكنهما خاليتان من نية سيئة أو شر. أزحتُ كفه عن كتفي بغضبٍ متحفزاً لما قد يبدر منه من تصرف. أدركَ توجسي فارتفعتْ ضحكته وشدَّ على كفي بمودة. قطع ضحكته كأنه تذكر أمرًا هامًّا ثم رفعَ رأسه نحوي مُسبلًا جفنيه. مرر أصابعَ كفه الطويلة على جبهته العريضة وخاطبني بكبرياء:

"اعلمْ يا رفيقي أن الوقتَ كالمسافة..."

"لم أفهم".

قلتُ بتواضعٍ مفتعلًا إصغاءً يثيرُ فضولَ المتحدث فاستأنفَ كلامه:

"الناس جميعهم يعتقدون أن المسافةَ خطٌّ مرسومٌ على الأرض".

".....".

"ولكن يا صديقي المسافة خطَ وهمي في الذاكرة".

وحينما وجد تململي الواضح من ألغازه أدار إليَّ ظهره وخطا نحو عربة الأطفال. أدخل نصفه السفلي في ما تبقى من كيس القمامة الممزق وغطى كتفيه ورأسه بالبطانية وكأنه أدركَ بأني لا أريد مشاركته في حواره الملغَز. تركتُه بخطواتٍ حذرة وقبل أن أبتعدَ عنه نادني بصوتٍ عالٍ:

"نعم كانتْ هنا وانتظرتْك طويلًا ثم ذهبتْ".

عدتُ إليه ثانية. قرفصتُ أمامه كتلميذٍ مذنبٍ وبتوسلٍ سألتُه:

"ولكن ألا تدري إلى أين ذهبتْ؟"

نطتْ منه ضحكةٌ حسبتُها مفتعلةً ثم أجابَ بسخرية:

"وكيف لي أن أعرف إلى أين ذهبتْ؟"

فقلتُ متأففًا محاولًا تغيير صيغة السؤال:

"أعني إلى أية جهة غادرتْ؟"

أزاح البطانية قليلًا عن رأسه. رفعَ رأسه بتثاقلٍ ثم قال بهدوء وكبرياء:

"الوقت.. المسافة.. الجهات.. المحطات.. الإقامة.. الرحيل.. كلها.. أمور افتراضية.."

وقبل أن يُدْخِلَ رأسه في بطانته القنفذية ردد كأنه يخاطبُ مجهولًا:

"..... يا رفيقي المستجدَ في الضياع".

* * *

قبل توغلي في طريقِ الضياع سجلتُ في مفكرتي:

(أنا عاشقٌ
غيَبه الوهمُ طويلًا
وحين أفاقَ إلى حقيقته كان بينه وبينها
غاباتُ قلقٍ وبحارُ ضياع
أنا عاشقٌ
ذلّه الانتظارُ
أنا عاشقٌ
يبحثُ عن حبيبته
وحينما وصلها أضاع أناه)

وكتبتُ أيضًا:

(قلت: انظرْ أمامكَ ترني
فرأيتُ شجرةً تمشي
جذورها في السماء
لم أصدّقْ عينيَ

حتى اجتازتْني
ولأنها الفرصةُ الأخيرة
فقد سملتُ عينيَ
قلت: اُنْظُرِ الآن أمامكَ ترني
فرأيتُكِ في ضوءِ عماي)

الفزّاعة

لا أخفي في البدء شعرتُ بمتعةٍ كبيرةٍ على الرغم من إدراكي بأني محض فزّاعةٍ جسدي خشبٌ وعظامي مسامير صدئة وتغطيني أسمالٌ بالية لا تسترُ سوى وهمِ كينونتي. لا أخفي ولا أخجلُ كما يفعلُ بناتُ آدم (ليس خطأ لغويًا ولكن مجرد مشاكسة خبيثة) حينما يخفون حقيقة مشاعرهم فأنا أعترفُ الآن بأن السطوة التي امتلكتُها كانت تثيرُ في نفسي الغرور ويُمتعني إحساسي بأني مُهابة من الصقور والطيور وحتى أعتى الرجال حينما يمر قربي في الظلامِ يُطلقُ صفيراً غبيًّا لطرد الخوف أو كي يوهمَ نفسه بأنه لا يخافُ من شاخصٍ في الظلامِ هو نفسه قد نصبه ليخيف به غيره. ذمّني الشعراء كثيراً ولكني أفضح كذبهم فما أشجار القلق التي زرعوها في حقول قصائدهم إلا أنا أنا أشجار القلق في حقول الشعراء حتى أطلق عليَّ أحدهم اسم جنيّة الحقول...

ولكن وكما ابن آدم قد دبَّ الوهنُ في سطوتي شيئًا فشيئًا حينما عرّتني الرياحُ من أسمالي وأفسدَ البلل جسدي والأشد من ذلك أن الطيور بدأت تكتشفُ حقيقتي بل حتى العصفور راح يحطّ على كتفي دون أن يخشى الذي كان يخشاه وراح ينقر جسدي وعينيّ

ويذرق على رأسي شامتًا كأنه يثأر للخوف الذي أشاعته سطوتي بالأمس.

ليس هذا سبب خيبتي بل هناك ما هو أشدّ من مرارة فقدان السطوة.. الضجر نعم.. الضجر الذي راح ينخرني فأنا بوقفتي البائدة هذي وشهوة الترصد التي هي من صلب وجودي أبدو الآن كأني ملكٌ مخلوع أو شرطي متقاعد.

بنتُ السقا

مددتُ إصبعي الصغيرة نحوها بحذرٍ فراحتْ تتسلقها ببطء شديد ثم سارتْ بحركةٍ رهيفةٍ أشاعتْ في جسدي خدراً لذيذاً. أفردتْ أجنحتها وقبل أن تهمّ بالطيران مددتُ لها البنصر فتسلقتها متخليةً عن فكرة الطيران وهكذا راحتْ تتسلقُ أصابعي وتهبط نحو الرسغ وكلما أشرفتْ على نهاية المسافة مددتُ لها جسراً لتنتقلَ إلى أصابع كفّي الأخرى. رميتُ الكتاب جانباً واتكأتُ على مسند الكرسي مستمتعاً بطقسٍ صيفي نادر.

"دم الشهيد".

رددتُ هذه العبارة مع نفسي حينما تذكرتُ ما قد استعصى على ذاكرتي قبل أسبوع وأنا أمارسُ لعبتي في استفزاز الذاكرة هذه اللعبة التي صارتْ تشكل عندي طقساً يومياً منذ خمس وعشرين سنة.

"دم الشهيد"

نوع من القماش أبيض وتنتشر عليه دوائر حمراء صغيرة كقطرات دم. كانت النسوة في العراق قد اتخذنه زيًّا وشاعتْ موضته في الستينات يشبه إلى حد ما جسد هذي الحشرة التي تمتاز عن بقية الحشرات بألفةٍ تثير البهجة في نفس الرائي وتجتذب إليها الأطفال كفراشةٍ أليفةٍ بلونِ فستانها الأحمر بنقاطٍ سود انتشرتْ

عليه بتناسق جميل.

لا أدري كم مضى من الوقت وأنا أتابعُ حركةَ هذه الحشرة وهي تنتقلُ بين أصابعي حينما فتحتْ طفلتي باب الشرفة. قفزتْ نحوي بفرحٍ إذ رأتني مشغولًا بلعبتي. قرَبتْ كفها الصغيرة من كفّي بحذرٍ مادةً إصبعها الصغيرة جسراً لعبور هذه المخلوقة التي سارتْ بسكينةِ الغافلِ أو اطمئنانِ الواثق من جماله المروّض لوحشية الكائن البشري.

عدتُ إلى كتابي مصغيًا إلى ضحكاتِ طفلتي وبهجتها وهي تراقب حركةَ الحشرة على كفيها الصغيرتين.

"بابا شنو اسمها بالعراقي؟"

هذا ما كنتُ أخشاه حيث إني وقبل أن تخرج طفلتي إلى الشرفة كان هذا السؤال يدور في ذهني وقد حاولتُ أن أتذكر الاسم ولم تسعفني الذاكرة.

"دعسوقة زيز..."

تمتمتُ محاولًا أن أجيب على سؤال طفلتي إلا أني كنت أتحايلُ على ذاكرتي فقد كنتُ واثقًا من أن لهذه الحشرة اسمًا جميلًا كنا نردده مع أهزوجةٍ لم أعد أتذكر منها شيئًا. ولكي أتلافى الإحراج الذي كانت تثيره نظراتُ طفلتي وهي تلحّ بالسؤال وربما السخرية من أبٍ شاختْ ذاكرته فلم يعد يتذكر لغته قلتُ بتحايلٍ مفتعلًا الثقة:

"اسمها دجاجة ماريا".

"مثل الاسم الدنماركي".

أجابتْ بخبثٍ كأنها اكتشفتْ كذبتي.

استيقظتُ فجراً مرعوباً من كابوسٍ غريب رأيتُ فيه وللمرة الأولى أمي التي توفيتْ في السنة الأولى من سنوات غربتي وحينما اقتربتُ منها لأقبّل رأسها أبعدته عني غاضبةً لسبب أجهله وهي تردد عباراتِ استهجان تدل على غضبٍ من سلوك هذا الصبي العاق الذي لم يعد يتذكر شيئاً من طفولته.

بصعوبةٍ رفعتُ رأسي ونهضتُ نحو المطبخ. كانتْ شفتاي يابستين وجسدي متعرقاً. فتحتُ صنبورَ الماء مقرّباً شفتي منه وقبل أن يلامسَ الماءُ شفتي تذكرتُ الاسمَ فرحتُ أصرخ بصوتٍ أيقظ النيام. تسمرّتْ زوجتي وهي تتطلع إليَّ بذهولٍ وأنا أردد:

"بنت السقّا.. بنت السقّا..."

المجهول

أكثر من خمس ساعات مضت ونحن محشورون في جوف السيارة القديمة التي كانت تخترق الصحراء الممتدة حتى الأفقين. توقفتْ أكثر من مرة لانفجارِ دولابٍ أو لارتفاعِ سخونة المحرك فكان المسافرون يترجلون وينتشرون بسرعةٍ على جانبي الطريق ويختفون خلف كثبان الرمل ثم يعودون وعلى وجوههم ابتسامات عريضة بينما كنتُ أقف على حافة الطريق الأسفلتي الساخن مذهولًا وأنا أتطلع إلى امتداد الصحراء.

ما من أحد غريب في السيارة لذا فقد انطلقتْ ألسنة عماتي وخالتي وزوجات أعمامي بأحاديثَ وهمساتٍ تتخللها ضحكات مكبوتة أدركتُ بالرغم من صغر سني بأنها تدور حولَ أمورٍ لها علاقة بحياتهن الزوجية بينما كانت عمتي الصغيرة بدرية ذات النهدين الصلبين واللذين وجدا بسخونة الجو مبررًا لانفلاتهما لاهثين تطق بعلكها وهي تتهامس مع زوجها الذي أحاط كتفيها بذراعه ضاغطًا صدرها على صدره المرتفع بزهو رجولةٍ قلقة. أكلوا وتقيَّأوا ثم أكلوا وتقيأوا ثانيةً. تشاجروا وتصالحوا وارتفعت ضحكاتهم لأمور لم أفهم منها شيئًا. ولأنها كانت رحلتي الأولى فقد كانت عيناي لا تستقران على نقطةٍ واحدة كأنهما تحاولان التهام المشهد كله.

فجأة عمَ صمتٌ وارتسم الخوف على وجوه الكبار الذين كانوا قبل لحظات يثرثرون ويضحكون كأنهم ماضون إلى عرس. شفاه بدأتْ ترتعش وهي تمتم بكلمات لا أفهمها وأعين مشدودة باتجاه القبّة الذهبية التي لاحتْ من بعيد. شعرتُ بيدي أمي وهما ترتجفان وصدرها يرتفع وينخفض وحشرجات أسمع حركتها ما بين الصدر والحنجرة. توقفتْ بدرية عن الضحك وغطتْ صدرها بوشاحٍ أسود وابتعد زوجها عنها قليلًا جالسًا بوقار. صمتٌ مخيف يخترقه إيقاع رتيب لطقات خرزات المسبحات في أكف الرجال وزفرات طويلة مصحوبة بعبارات الاستغفار من ذنوبٍ لم أستطع تخمين طبيعتها.

"إذن لم تتبقَ إلا مسافة قصيرة ونصل إلى المجهول الغامض الذي ينتظرنا".

لم أكن أعرف ماذا سينتظرنا في نهاية الرحلة لكن التغيّر المفاجئ الذي طرأ على الجميع أوحى إلي بيقين بأنّ شيئًا لا يسرّ يقف على رصيف كراج السيارات بانتظارنا لذا فإني كنتُ أتمنى أن يطول الطريق إلى ما لا نهاية حتى لو كان الطريق متاهة في صحراء.

توقفتْ السيارة في كراج المدينة بعد أن اجتازت الطريق المحاذي للضريح بمنائره وقبته الذهبية. تطلعتُ من زجاج السيارة بحذر وخوف فرأيتُ الشارع مكتظًا بالناس المسرعين نحو المجهول الذي ينتظرهم والذي قضينا نصف نهارٍ من أجل الوصول إليه. ترجل أعمامي متلكئين بوضوح كأنهم مدفوعون بقوة مجهولة ولكي يخفوا ارتباكهم ويُظهروا عكسَ ما يضمرون راحوا يحثّون نساءهم

على الإسراع فتدافعن عند باب السيارة حريصاتٍ بمبالغةٍ واضحة على تغطية وجوههن ببراقعهن السوداء مطيعات أوامر أزواجهن بعبودية مختارة.

توقف عمّي الكبير على حافة الرصيف المكتظ بالسابلة والعربات رافعًا رأسه إلى الأعلى متطلعًا إلى نقطةٍ بعيدة في الفضاء كأنه يختبر النوء أو يصغي إلى صوت قادمٍ من جهة مجهولة يعطيه الإشارة. تلفتَ يمينًا وشمالًا ثم حثّ خطاه باتجاه الشمال دون أن يلتفت إلينا فسار الموكب خلفه الرجال في المقدمة والنساء يتبعنهم دونما إرادة. تطلعتُ إلى السماء راجيًا منها أن تُهدي عمّنا الكبير ليتخلى عن نيته لكن أمي سحلتني من ذراعي بقوة كحملٍ حانت ساعة تقديمه قربانًا للإله المجهول الذي جئنا من أجله. افتعلتُ تعبًا وألمًا في قدمي لتأجيل النهاية إلا أن ذلك لم ينفع فقد ازداد إلحاح أمي وقوة قبضتها وهي تسحلني مسرعةً للحاق بالموكب.

بوابة حجرية كبيرة يقف عندها حارس ضخم الجثة وبلحيةٍ كثة يغطيها تراب أصفر يرتدي دشداشة وسخة أو بلون التراب وقد وضع طرفها في حزامه فظهرتْ إحدى ساقيه بعضلات مفتولة وأعصابٍ زرقاء بارزة. تحدث معه عمي بكلامٍ لم أستطع التقاطه مما زاد من حيرتي. صرخ الحارسُ فهرع إليه صبي أملح الوجه وبعينين يسيل منهما رمص أصفر. أشار الحارس إلى جهة في عمق العالم المجهول فانطلق الصبي في الاتجاه مسرعًا يتبعه عمي الكبير والموكب.

"إذن هذه هي مقبرة النجف التي حدثونا عنها".

رددتُ مع نفسي ورحتُ أسحل بقوة قدميَ اللتين انغرستا في رمال ساخنة متحاشيا الوقوع في الحفر الكثيرة التي بدتْ لي كأنها أفواه جائعة أو فخاخ تترصد قدم الغافل لتنقضَّ عليه. قبور لا تعد كأفيالٍ حجرية مقطوعة الخراطيم تمتد حتى الأفق المجهول ولا يفصل بين قبر وقبر سوى مسافةٍ ضيقة لا تسع لمرور جسد إنسان. كان الصبي الدليل ينط فوق القبور متجهًا بخبرة عالية في اتجاه واضح على هذه الخريطة المبهمة وكلما ازدادت المسافة بينه وبين الموكب امتطى ظهر أحد الأفيال وراح يلوح إلينا بذراعيه. توغلنا في عمق الوادي. بدا التعب واضحًا على النسوة فصرن يرتطمن ببعضهن مترنحات من هول المشهد يحاولن اللحاق بالرجال الذين سبقونا بعزيمة السائر إلى معركةٍ دون أن يلتفتوا إلى نسوتهم الخائفات. كانت أمي تردد كلمات لم أفهمها فيزداد ارتباكي ورغبتي في الهرب.

وأخيرًا توقف الصبي وأشار بيده إلى قبر قديم تآكلت شاهدته فتوقف الجميع متسمرين بخشوع أمام الشاهدة التي استطعتُ تهجئة حروفها المكتوبة بخط رديء. لم تمضِ على وقوفنا سوى ثوانٍ قليلة وبلحظةٍ متفقٍ عليها انفجرَ الجميعُ بالبكاء.

"كيفَ حدث هذا؟ هل كانوا بانتظار هذي اللحظة؟ هل استجمعوا كلَ أحزانهم السابقة ليفجروها في هذه اللحظة التي قطعوا المسافات للوصول إليها؟ هل هم صادقون بأحزانهم؟ وكيف

هطل عليهم الحزن فجأة وكانوا قبل أقل من ساعة يضحكون ويمزحون كأنهم لم يتذكروا الموت إلا في هذه اللحظة؟..."

كانت الأسئلةُ تتلاطم في رأسي الصغيرة. غطيتُ وجهي بكفيَّ مفتعلًا البكاء وبين لحظة وأخرى كنت أتطلعُ من بين أصابعي لعلي أكتشفُ زيفَ مشاعرهم فأجد مبرراً لعدم شعوري بالحزن على هذا الجد المجهول.

وكما ابتدأ البكاء في لحظة مقررة سلفًا توقف فجأةً وبإشارة لا أعرف مصدرها. تمخط بعضٌ بصوت عالٍ وأشعل آخرون سجائر راحوا يمتصونها بعمق زافرين دخانها مصحوبًا بحسرات عميقة بينما أزاحت النسوة نقابهن وهن يمسحن دموعهن متمتمات بينهن بكلمات مودة مفتعلة. خطا عمي الكبير بضع خطوات مبتعداً عن قبر جدي. ارتفعتْ أنظار الآخرين تراقب خطواته حتى اختفى بين القبور وحينما عاد كانت تلوح على وجهه ابتسامة عريضة ويداه تزرران فتحةَ بنطاله. تسلل الرجال في الاتجاه نفسه وعادوا وعلى وجوههم ابتسامة من تخلص من عبء ثقيل. ارتفعتْ ضحكة عمتي بدرية خجولة وقد توقعتُ بأنها ستلاقي تأنيبًا من الآخرين إلا أنها كانت جرسًا يؤذن بانتهاء حصة درس الحزن والبكاء فارتفعت ضحكات أخرى بينما تجمع الرجال في حلقةٍ وهم يتحدثون بشكلٍ يوحي بالمودة والألفة. أدرك الصغار بفطرة أن الرحلة نحو المجهول قد انتهتْ فرحنا نلعب وننطَ بين القبور بل تجرأتُ وامتطيتُ ظهر جدي فارتفعت ضحكات الكبار وهم يرونني وقد شددتُ ساقيَّ على

الركاب ماسكًا برأسِ النائم ضاربًا عجيزته بسوط الوهمِ لينطلق بي جامحًا مجتازًا سورَ المقبرة مخترقًا جدار الأفق المغبر برحلةٍ أخرى نحو مجهولٍ آخر.

الغريق

- ١ -

حينما عدتُ إلى البيت مترنحًا من شدة ذهولي استقبلتني زوجتي منفوشة الشعر خائفةً كأنها استشعرت الكارثة بحاسّة أمّ غريبة وقبل أن أدخل البيت سألتني:

"أين هو؟"

تطلعتْ إليها ببلاهةٍ وقد تخشبَ لساني فلم أستطع النطق وحينما طالَ صمتي تشبثتْ بذراعي وراحتْ تهزها بانفعالٍ وهي تردد:

"قلْ! أين ولدي؟"

فأجبتها وقد اختنقتُ بحسرةٍ لم تنفجر على الرغم من أني حاولتُ البكاء لكني لم أستطع:

"مات".

لم تُفاجأ بالأمر ولم تصرخ بل تطلعتْ إليَّ بوجهٍ غابتْ ملامحه وببرودٍ سألتني:

"ولماذا عدتَ إذن؟"

- ٢ -

"حقًّا لماذا عدتُ؟"

مازلتُ أردد هذا السؤال على الرغم من مرور أكثر من عشر سنوات على الحادثة. ولكن ماذا كان بوسعي أن أعمل؟ وإلى أين كنتُ سأذهب إنْ لم أعد إلى البيت؟ خاصة وأن أوان التضحية أو التبرير قد فات بعد أن هدأتْ مياه النهر وعادتْ صفحته لامعةً تحت شمس الغروب كأن شيئًا لم يكن وتفرق الناس الذين تجمهروا حولي ما بين لائمٍ لغفلتي أو ساخرٍ من جبني الذي منعني من أن أرمي بنفسي إلى النهر لإنقاذ ولدي من الغرق بينما راح يردد بعضٌ مقولةً لم يقتنع هو نفسه بها عن القدر واليوم المحفوظ في لوح الغيب لم يبق سوى شاب ثمل بقي واقفًا إلى جانبي يحدق إلى الأفق الدامي وهو يترنح وحينما لم يجد مبررًا لوقوفه تطلع إليَ ببلاهةٍ وخاطبني ببرودٍ أو عبث يليق بحاله:

"بعد ثلاثة أيام ستطفو جثته".

تطلعتُ إليه باستهجانٍ وغضب فرفعَ كتفيه بلا مبالاة ورمى خطوته دونما اتجاه محدد وهو يردد:

"نعم بعد ثلاثة أيام ستطفو جثته.. أو ربما أقل.."

أما أنا فلم أترك أحدًا لم أشتمه الناس الذين على الرغم من ندائي واستغاثتي بهم لم يكلف أحد منهم نفسه أن يرمي بها لينقذ ولدي من الغرق ليحوز على الإعجاب والشكر.

"سفلة كلاب.."

كان بعض منهم قد تظاهر بخلع حذائه وملابسه ولم يتمم خلعها إلا بعد فوات الأوان بينما تفرق بعض آخر كأنهم يتهربون

من تهمةٍ تُعرّضهم إلى عاقبةٍ هم في غنى عنها. أما أهلي (الأحياء منهم والأموات) فقد أخذوا حصتهم من الشتيمة والحنق فبجبنهم وحرصهم الغبي الذي حاصروا به طفولتي كانوا عائقًا حالَ دون تعلمي السباحة على الرغم من حبي لها وهذا ما دفعني للانتقام منهم فكنتُ أصطحبُ طفلي قاطعًا معه مسافةً طويلة للوصول إلى النهر مشجعًا إياه بكلماتٍ ومواعظ لاختراق التيار بجسده الطري وعظامه الغضروفية حتى أجاد السباحة بمهارةٍ تلفت الأنظار إليه. كنتُ أجلسُ على الجرفِ أراقبه بزهوٍ وهو يدفع الموجةَ بصدره اللدن وذراعاه تتحركان بتناغمٍ يثير البهجة في نفسي والألذ من هذا هو التشفي الذي كان يملأ روحي قناعةً وكأني أعيد الزمان ثلاثين عامًا فأسخر ممن حرموا طفولتي من اللعب والغبطة.

"لكل شخص يومه المحفوظ في الغيب".

"ألم يجد الغيبُ غير طفلي لتحقيق ذاكرته؟"

حتى طفلي وقد غدا طعامًا للسمك لم يسلم من شتائمي:

"ابن الـ... ألم أقل لك لا تبتعد كثيرًا؟"

وهكذا لم يبقَ أحد لم تنله شتائمي.

- ٣ -

"ولكن لماذا عدتُ؟"

أمس استيقظ هذا السؤال في ذاكرتي وراح يلحّ عليَّ. في البدء كان صوت زوجتي (بالمناسبة تركت البيت بعد موت ابننا مباشرة ولم تعد) يتسرب إليَّ من جدار عزلتي يحمّلني مسؤولية رعونة

القدر الذي اختار طفلنا الوحيد. أحاول أن أغلق أذني لكنّ للصوت صدى يتردد في داخلي يخرج مني ينتشر في فضاء الغرفة حتى أشعر بتخلخل الهواء فتضيق أنفاسي. صراخ.. عويل.. استغاثة.. حشرجات مختنق... ثم صمتٌ أكثر صخباً من الضجيج.

أكملتُ شربَ قنينة العرق كاملةً فزاغ بصري وبدتْ أمامي أشباح تتقافز في الغرفة. تنطّ حولي. تركلني. تطلق أصواتاً غريبة. تُدلق ألسنتها ساخرة.

ارتفع صوتي بشتائمَ لكل من يأتي ذكره على بالي وكلما ارتفع صوتُ شتائمي ارتفعتْ ضحكات الأشباح ثم صمتٌ غريب كأن كلّ شيء حولي قد غرق في موته واختنقَ الهواء فسقطتُ على الجرف أعزلَ تحاصرني كواسجُ العزلة والموت غير أني وكمنْ يتذكر فجأة أمراً كان منسيًّا أو كمنْ يُرمى إليه طوق نجاة قبيل لحظة غرقه نهضتُ دونما تردد لتنفيذ القرار الذي ظل يراودني طيلة عشرة أعوام. أحضرتُ عدةَ التنفيذ (أو بالأحرى كانت حاضرة معي دائماً) وجلستُ أكتب وصيتي.

- ٤ -

استيقظتُ فجراً كان الصداع مطارقَ تضرب صدغيَّ. نهضتُ متثاقلًا دون أن أفتح عيني. تناولتُ قرصيَ أسبرين وعدتُ لأكملَ نومي.

النجم

وأنا ممددٌ على دكّة الأموات حلمتُ بأني عائدٌ إلى مدينتي الأولى. كنت أحاول أن أجمعَ ما نسيتُ من الطفولة. كان الناسُ يتطلعون إليَّ بغرابةٍ وأعينهم تتساءلُ "من أي كوكبٍ هبط هذا المخلوق الغريب؟". تقدمَ أحدهم مني بحذرٍ وسألني عمَّ أبحث فأجبتهُ بهمهمةٍ مبهمة حيث إني نفسي لم أكن أعرف عمَ أبحثُ وحينما تأكد من أني كائن بشري لا يثير الخوف هجمَ علي متشبثًا بذراعي يهزها بقوةٍ وهو يردد بصيغةٍ لا تخلو من الفظاظة والأمر:

"قلْ عن أي شيء تبحث أيها الغريب! .. قلْ.."

سحبتُ ذراعي من قبضته مبديًا امتعاضي من طريقة سؤاله بنظراتِ تعالٍ وأجبته:

"أبحثُ عن شيء لا يعنيك..."

تغيرتْ ملامحُ وجهه واكفهر بينما راحت شفتاه ترتجفان كأنهما عاجزتان عن النطق. تراجع خطوتين وبحركةٍ سريعةٍ مدّ ذراعه نحوي شاهرًا مسدسه بوجهي.

"قلْ عن أي شيء تبحث! قلْ.. وإلا سأهشم رأسك"

تطلعتُ إليه بخوف. تلفتُ حولي باحثًا عن جهةٍ للهرب فوجدتني محاطًا بدائرةٍ من الوجوه الغريبة وهي تحملق بي بفضولٍ

وحقد وحينما طال صمتي بدأت الدائرة تضيق.. وتضيق حتى شعرتُ بالاختناق. شعرتُ بفوهة المسدس وهي تلامس صدغي وارتفع الصوتُ آمراً:

"قلْ.. عن أي شيء تبحث.. قلْ.. فالوقت لا يمضي لصالحك.. قلْ!"

رفعتُ ذراعيَ مستسلماً وقلتُ:

"جئتُ أبحثُ عن كنزٍ.. دفنته هنا قبل رحيلي.. أعني قبل خمس وعشرين سنة".

تراختْ ذراعه المتشنجة وهبطتْ بحركةٍ بطيئةٍ فشعرتُ بزوال الخطر عن رأسي. تراختْ عضلات الوجوه المستفزة وارتسم عليها فرح وتنفس بعضٌ بعمقٍ متلمظًا كأنه وجد ضالته في الكنز المزعوم. تقدمَ مني رجلٌ يبدو في الخمسين من عمره. وضعَ كفّه على كتفي وبرزانةٍ وألفةٍ سألني كأنه يستحثني على تذكر المكان الذي دفنتُ فيه الكنز وحينما أشرتُ بذراعي إلى دائرة بدتْ واسعةً طأطأ رأسه زافراً بخيبة. حدّقَ في عينيَ طويلًا كأنه يختبر صدقَ نيَّتي ثم سألني:

"ألم تضعْ علامةً تشير إلى المكان؟"

ثم استدرك:

"ولو على وجه التقريب"

هززتُ رأسي بالإيجاب فطفحَ الفرحُ على وجهه مستبشراً بينما راح الآخرون يتهامسون في ما بينهم. قرّبَ صفحةَ وجهه مني حتى

لامستْ أذنه فمي مصغيًا إليَّ بحذر مَنْ يريد حيازة السرَ وحده. قلتُ:

"نعم. دفنته تحتَ النجم الكبير..."

وقبلَ أن أكملَ جملتي ارتفعتْ ضحكته ساخراً. صفعَ الهواء القريب من وجهي وخطا مبتعداً عني. تطلعتْ إليَّ الوجوه الأخرى بنظرات شفقةٍ أو خيبة. انفضَ الجميع ولم يبقَ في المكان سوى شيخٍ ضرير بلحيةٍ بيضاء تغطي وجهًا ظهرتْ عليه آثار جدري أو أثار شظايا قذيفةٍ أو لغم. تقدمَ ببطء حتى توقفَ على بعدِ خطوتين مني. ارتسمتْ على وجهه ابتسامة أليفة وبهدوء جليلٍ خاطبني:

"الحقُّ معكَ يا بني... والحقُّ معهم كذلك".

وقبل أن أسأله توضيحًا لما قاله أضافَ بحزن:

"يبدو أنكَ لا تعرفُ شيئًا عن هذه المدينة... فمنذ زمنٍ طويلٍ لم يظهر في سمائها نجمٌ.. بل لم تعد هناك سماء.. لذا فهم لا يعرفون ماذا يعني نجمٌ أو سماء".

"هل هم عميان؟"

سألتُ ببلادةٍ فارتفعتْ ضحكته وأضاف:

"لا..لا.. أنا أقول الحقيقةَ يا بني.. انظرْ!"

قالَ رافعًا سبابته إلى الأعلى. رفعتُ رأسي إلى حيث أشارَ فلم أرَ سوى دُخانٍ كثيفٍ.. دخانٍ أسود.. أسود يكاد يمطرُ قطرانًا.

مازلتُ على دكّة الأموات رأيتني ممددًا. كنتُ سعيدًا بهذا المعراج اللذيذ المتسامي على كائنات ضئيلة لم تبلغْ بعد إدراك ما أدركته أنا

فما بين الألم الشديد والراحة المطلقة لحظةٌ لا يعرفها إلا من اجتاز البرزخ.. هبوط حرَ في وادي البياض أو إقلاع مفاجئ وارتقاء إلى ملكوت السماء المشعة بالنجوم.. تأرجحٌ طفولي لذيذ وسباحة في نهر فضي. كان آخر ما شعرتُ به قبل العبور أن يداً نزقةً خلعتْ بعنفٍ الخاتمَ من إصبعي فضحكتُ.. ضحكتُ وأنا أحاول أن أعود مرةً أخرى إلى حلمي الأول باحثًا عن الكنز تحتَ النجمِ الغائب أو أجمعَ ما نسيتُ من طفولتي هناااااااك.

الفكرة

لا أدري كيف خطرتْ تلك الفكرةُ الغريبة على ذهني فأنا لا أحب الزهور ورائحتها تهيج حساسية شديدة في أنفي تجعلني أقضي يومي كله في العطس والرشح ولكنَ الفكرةَ (كغيرها من الأفكار) خطرت على ذهني ربما لأني لم أجد يومها من أشاكسه ومللتُ من مشاكسة نفسي فجاء الدور على الأموات. بعد صراع مع نفسي استطعت التغلب على نزوتها الغريبة فحششت خطاي (خوفاً من التراجع) نحو البوابة المقابلة للحي السكني الذي أقيم فيه وحينما أصبحتُ خارجَ المقبرة شعرتُ براحةٍ كبيرة فربما هذي هي المرة الأولى التي أستطيع فيها الانتصار على استبداد فكرة. لم يدم الانتصار طويلًا فقد عادت الفكرةُ نفسها حينما مررتُ بالمقبرة في اليوم التالي وباستبدادٍ أقوى كأنها تريد الانتقام لهزيمتها أمس. اقتربتُ من أحد القبور وقد كانت باقات الزهر متكدسة عليه بشكل يلفت الانتباه. تلفتُ يميناً وشمالًا ثم قعدتُ القرفصاء عند رأس الميت تماماً محاولًا إيهامَ مَنْ يراقبني بأني أضع باقة من الزهر أو أتلو على روح الميت تراتيل صامتة. وقع نظري على الشاهدة فاكتشفتُ أنَ الميتَ حديث الرحيل فأشفقتُ عليه وقد كان إشفاقي عذراً كافياً للامتناع عن فعلتي. انتقلتُ إلى قبرٍ ثانٍ وقبل أن أسرقَ

زهوره قرأتُ الشاهدة فعرفتُ أن الراحلَ قد تركَ الحياةَ ولم يزل شابًا في ربيع عمره فسحبتُ يدي معتذرًا لأنتقلَ إلى قبرٍ ثالثٍ وكان لسيدة تغاضيتُ عن قراءة عمرها لكي أتخيلها شابةً رقيقة الروح تسعدها الزهور والهدايا... وهكذا عند كل قبر وجدتُ عذرًا للامتناع عن سرقة زهوره حتى وجدتُ ضالتي عند قبرٍ مات صاحبه منذ أكثر من خمسين عامًا وبعمرٍ تجاوز الثمانين:

"ما حاجتكَ للزهور؟.. لم يبقَ من عظامك غير تراب.. ألا يكفي أنكَ عشتَ أكثر من ثمانين عامًا؟.. ألا يكفي أن لك قبرًا وشاهدةً مرمرية جميلة؟..."

وجدتُ بهذه الأسئلة مبررًا لسرقة زهوره فمددتُ يدي بثقةٍ ودون تأنيب ضمير غير أن هاجسًا وسؤالًا بترَ عزمي:

".. ولكن من بقي لك في الحياة يتذكركَ ويأتي لزيارة قبركَ حاملًا هذا العدد الكبير من باقات الزهور الندية؟.. لا أظن أن في حياتنا الآن وفي هذا البلد بالذات أحفادًا يتذكرون أسلافهم بهذا الوفاء.. منْ أنتَ؟"

أعدتُ باقة الزهر إلى موضعها ونهضتُ متثاقلًا. خطوتُ باتجاه البوابة الرئيسية وأنا أحاول أن أجد تفسيرًا للأمر.

"لا بد أنه عالم أو سياسيٌ شريف ترك آثارًا مهمة جعلت الناس في هذه المدينة تقرّ له بالفضل فيأتون لزيارة قبره عرفانًا بما أفنى به حياته من أجلهم؟"

وهكذا... كلما اخترتُ قبرًا لاستباحة زهوره أجد أكثر من مبرر

للامتناع ولكن الفكرة لم تزل تخطر في ذهني كلما اجتزتُ المقبرة وأنا عائد إلى بيتي الذي يقع قريباً منها.

أمس وأنا راقد في سريري أتطلع إلى السقف المنحني الذي يكاد يطبق على جسدي خطرت في ذهني فكرة لم تخطر من قبل:

"ماذا لو كنتُ أنا الميت.. فبأي عذر سأمتنع عن سرقة زهوري؟"

وكالعادة تبدأ الفكرة مزاحاً مع النفس لكن سرعان ما تستبد بي لتنقلب إلى هواجس تطير النومَ من عيني. شعرتُ بأسى شديد حينما عجزتُ أن أجد مبرراً واحداً يردعني عن سرقة زهور قبري. حاولتُ أن أبعد الفكرة عن تفكيري لكني لم أستطع التخلص من هذا الهاجس المؤلم إلا بعد أن اخترعتُ فكرة أخرى أكثر إيلاماً وأشد أسى فرددتُ مع نفسي بعد أن غطيتُ رأسي باللحاف وبطريقتي العبثية التي اعتدتُ بها حسم الأمور:

"هه مَن يضع زهوراً على قبركَ أيها الغريب؟"

(.....)

تعالتْ أصواتُ الرجال بالتكبير مشروخةً بالنشيج والرهبة وارتفع صراخُ نسوةٍ كثيرات تخيلتهنّ وهن يلطمن خدودهن المحمرّة وقد أحاطتْ اثنتان منهنّ بزوجتي المترنحة من هولِ الفاجعة ماسكتين بكتفيها كيلا تنهار بينا كانت ابنتاي تسيران في مقدمة الموكب بثياب الحداد وقد تجمعتْ أنظارُ المتجمهرين على جانبي الطريق المؤدي إلى المقبرة مشفقة على يتيمتين فقدتا سندهما وحارسهما. الرجالُ يتسابقون والأكفُ تتصارع فيما بينها لتجد لها موضعًا أسفل التابوت لا اعتزازًا بي بالتأكيد وإنما لجمع أكبر عدد من الحسنات فلقد اعتقدوا أن حملَ تابوتِ الميت ثواب ولكن هذا إذا كان الميت مؤمنًا. لم يخفِ أحد المشيعين ذلك فقد راح يهمس في أذن صاحبه مؤكدًا على فسقي وإلحادي لكنّ رجلًا آخر اعترض كلامه مؤكدًا أن لا يزكي النفوس إلا خالقها. أضحكُ في سرّي على بلاهتهما فأنا الآن حر لا يشغلني التفكير بمثل هذي الأمور. الشيء الوحيد الذي كان يؤلمني هو أني ما أوصيتُ زوجتي بأن تحرقَ أوراقي التي دونتُ عليها أفكاري الساذجة.

المحطة القديمة

لم يكن نداءٌ خفيًّا ما دفعني إلى الخروج على عزلتي بل هكذا وجدتُ نفسي حينما تضيقُ بي عزلتي أتركُ لأقدامي حريةَ قيادي إلى حيث تشاء. لم أكنْ أعيرُ اهتماماً للسؤال الذي كان يلحّ عليّ سابقًا كلما هممتُ بالخروج أو الرحيل (إلى أين؟ أي الجهات وجهتي؟ أي طريق أقرب إلى الغاية؟ بل ما هي غايتي؟ ... الخ) فلم أعد رقيبًا صارمًا على سلوكي وتصرفاتي والتي يحدث أحيانًا أن تكون غريبةً فقد حرّرتُ أعضائي من عقالِ عقلي وأطلقتُ لها حريةَ أن تختار.

"جسدي ليس لي".

هكذا اقتنعتُ أخيراً بعد أن تيقنتُ أنه لا يمت إلي بصلةٍ بل إن علاقتي به أو علاقته بي كعلاقة الميت بالتابوت. نعم إنه تابوتي الذي يسير بي نحو المجهول.

"إذنْ سيري يا خطاي إلى حيث تشائين طالما أن لا بديلَ لي يبررُ لجمكِ وإنْ كان لي اعتراض على اتجاهكِ فأين هي الطريق التي ستسلكها إرادتي بل أين إرادتي...."

أزقة قديمة تتداخل فيما بينها وكل زقاقٍ ضيّق يفضي إلى آخر أضيقَ منه كنتُ أجتازها بهيمانٍ ولكنْ دون خوفٍ أو توجس فأنا

أعرفها جيداً ولي تاريخٌ طويلٌ في هذه المدينة الصغيرة ولكن منذ فترة ليست بالقصيرة آثرتُ العزلةَ والانزواء إذ فقدتُ الرغبةَ في الاكتشاف منذ إدراكي أني اكتشفتُ كلَّ زوايا وخبايا المدينة التي جئتُ إليها يافعًا فعرفتُ ظاهرها وباطنها حدائقها ومكتباتها حاناتها ومواخيرها بل إني أقمتُ علاقات صداقة مع عاهراتها وحشاشيها حتى أني أعرفُ أسماءَ الأزقة الغريبة أفضلَ من أيّ ساعي بريد في المدينة فقد كنتُ أجتازها يوميًّا في طريقي إلى البحر أو إلى محطة القطار القديمة. لا تزال البيوت أو الزوايا تحمل رائحةً من الماضي إلا أنها لم تعد بالنسبة إليَّ سوى ماضٍ لا أشعر نحوه بحنينٍ أو ألفة فهو ماضٍ لم يمدّ يده إليَّ يومًا كي يُشركني في رسمٍ أو تخيّل صورته ولم يكن دخولي إليه سوى تطفلِ الغريب لمعرفته حمايةً لنفسه وليس للمشاركة في زهوه أو انتكاساته لكنه وعلى الرغم من صلادة جداره وعنف قوته الطاردة لي إلا أنه كان رحيمًا بي ولو بتجاهله لوجودي فمن حيث لم أحسب أزاح عن كاهلي ثقلَ ماضيَّ الذي ظلّ يطاردني سنواتٍ عديدة وقد وهبني متعةَ الانزواء بعيداً عنه وعن مسؤولية المساهمة في ترميمه.

لاحتْ لي أنوارُ الفجر الأولى حالَما وصلتُ إلى نهاية الدهليز فبدا سطحُ البحر رماديًّا مكفهرًّا كأنه الماضي الذي لا يبرح نفسه سادراً لم يعتريه شيء من تجاعيد الزمن على الرغم من كلّ التحولات التي طرأتْ خلال السنوات الثلاثين التي قضيتها بالقرب منه. زادَ مشهد البحر اكفهراراً مشهدُ الميناء المهجور برافعاته القديمة وقد غطّاها

الصدأ وتقطعتْ حبالها وركام مراكب الصيد الصغيرة التي تعفن خشبها وأُذلتْ قياديُمها فانغرزتْ في الماء كمحتضرٍ طالتْ فترةُ احتضاره.

قادتْني خطايَ إلى الجانبِ الآخر حيث الطريق المؤدية إلى المحطة القديمة التي لا تبعد كثيراً عن الميناء. لا أدري منذ متى ألصقت الصفةُ بها فمنذ مجيئي إلى المدينة وهي تسمى بالمحطة القديمة. بقايا رصيف متآكل وخطان حديديان تراكم عليهما الصدأ وقناني البيرة ونفايات المتشردين. سرتُ بموازاة بقايا السكة إلى حيث البناء القديم الذي لا يزال يحملُ رائحة السفر وأشواق اللقاء أو حسرات الوداع. لا أدري لماذا بقيَ هذا الركام وهذا الرصيف الأسمنتي المتآكل على الرغم من العمران والتجديد الذي وصلَ حدَ الهوس حتى غدت المدينة تكاد تختلف تماماً عن المدينة التي رأيتها أول مرة قبل ثلاثين عاماً حينما جئت إليها لاجئاً يبحث عن الأمان بعد أن لفظتني المدنُ التي كنت أحسبُ واهماً بأنني تركتُ بصماتي على جدرانها وأبوابها. وكأيّ غريبٍ كان الخوفُ يدفعني لاكتشاف المدينة لينتهي بي البحثُ إلى مكانٍ أجد فيه الألفة والأمان. وهكذا وبعد مرور أشهر قليلة استقر بي المقام في مكانين قريبين من بعضهما ألجأ إليهما بالتناوب: الميناء المهجور حيث النوارس الجائعة التي تطلق أصواتاً كأنها صراخُ مفجوع وهواة الصيد الذين كنتُ أشعر بمتعة كبيرة وأنا أراقب صراعهم مع الحظ وأصغي إلى ردود أفعالهم المتناقضة وفقَ مزاج حظوظهم المتقلب والمكان الآخر هو

المحطة القديمة التي كانت تجتذبني إليها رائحةٌ مجهولة وغموضٌ يثيرُ في نفسي شبقَ الرحيل إلى آفاقٍ قصيّة لم يصلها مخلوق فتكون لي عزاءً وأملًا بأنّ مازال في الأرض مكان قد أجد فيه السعادة فأمنّي نفسي في الوصول إليه. أفتحُ حقيبتي الصغيرةَ وأخرج عدّة سفري الوهمي وهي بضع قناني بيرة وكتاب أسرحُ بين سطوره موهمًا منْ يشاهدني بأني لستُ ضائعًا أو شريدًا وقد كنتُ أرى نظرات الإعجاب تلوح على وجه منْ تدفعه المصادفة في طريقي لما يوحي به المشهد من جديّةٍ وهيبة أو في أسوأ الأحوال نظرات شفقة على غريب يقتل عزلته بعزلةٍ أخرى.

رميتُ حقيبتي الصغيرة على بقايا مصطبةٍ خشبية متضعضة وقبل أن أقعد لاحَ أمامي شبحُ امرأةٍ جالسة على بقايا مصطبة أخرى تبعد عني بمسافة عشرة أمتار تقريبًا. انتبهتْ إلى وجودي فتحركتْ قليلًا مفتعلةً السعال. تمطّتْ بكسلٍ أو غنجٍ ناشرةً ذراعيها في الفضاء هزّت رأسها طاردةً النعاس فانتشرَ شعرُها في الفضاء أشقرَ ونهضتْ بنشاطٍ كأنها أفاقت على موعدٍ كاد يفوت أوانه. لم تبدُ على وجهها علامات استغرابٍ من وجودي هنا في مثل هذا الوقت وراحت تتصرف وكأنها لم ترني أو ربما لكي توحي إلي أنها واثقة من نفسها معتادة على رؤية أشباح الليل فأشحتُ بوجهي إلى الجهة الثانية كي أردَ عدم اهتمامها لوجودي بالمثل أو أشعرها بالأمان. أخرجتُ علبة سجائري وسحبتُ واحدة بتأنٍ مبالغٍ فيه ورحتُ أنفثُ الدخان إلى الأعلى بينما هي راحتْ تذرعُ رصيفَ المحطة جيئةً وذهابًا ويداها مشتبكتان على صدرها كأنها تحتضن نفسها

شوقًا أو لتمنع تسرب دفء جسدها من فتحة الصدر. مرّتْ من أمامي عدة مرات خلال حركتها البندولية وبإيقاع رتيب وكلما أصبحتْ أمامي تمامًا توقفتْ وراحتْ تتطلع إلى ساعتها أو تقفُ على حافة الرصيف لتميل بجسدها نحو جهة خطي السكة ماطةً عنقها إلى أقصى طاقتها كأنها تنتظر قطارًا قادمًا من الجهة الشمالية وهذا ما جعلني وبحسن نية أحسبها غريبة عن هذه المدينة وقد أضاعتْ طريق المحطة الحقيقية فخاطبتُها بلغة حاولتُ انتقاءَ مفرداتها بعناية وتهذيب:

"ولكنَ القطار لا يمر من هنا.."

لم تجبني فكررتُ ما قلته وبصوت أعلى وبلهجة أكثر يقينية. التفتتْ إليَ وبوجه جادَ أضاف السهرُ والنعاسُ عبوسًا إلى ظلام جديته قالتْ بصوت متقطع:

"أعرف... ذلك".

كانت طريقتها في الرد لا تخلو من فظاظة مما شجعني على الردّ باستفزاز مماثل وسخرية:

"ولكن ماذا تنتظرين إذن؟"

تطلعتْ إليَ بغضب وهمّت أن تقول شيئًا إلا أنها امتنعتْ لسبب أجهله وقد ارتسمتْ على وجهها علاماتُ امتعاض من فضولي. تطلعتْ إلى ساعتها متأففةً ثم غادرتْ المكان وهي تردد كلامًا لم أستطع التقاطه.

لم أشعر بحقد أو حنق عليها بل على العكس شعرتُ بالخجل من تطفلي وإلحاحي حيث أنا نفسي لا أطيقُ أحدًا يشاركني متعة انتظار مَنْ لا يأتي.

دُخَان

لم أنمْ ليلة البارحة حتى قررتُ إنهاء القلق الذي استبدَ بي منذ أكثر من عشر ليالٍ. قررتُ أن أوقفها حينما ألتقي بها صباحًا وأبوح لها بما أشعرُ به نحوها. استيقظتُ مبكرًا على غير عادتي وانتظرتُ عند باب الشقة مرهفًا السمع إلى خطواتها وهي تنزل الدرج وحينما اقتربتْ من باب شقتي فتحتُ الباب بهمّةِ مَنْ يذهب لأمرٍ طارئ فاصطدمتُ بنسائم عطور تكفي لملء الفضاء كله. ارتبكتُ وأنا أرى هذا الجمالَ المستبدَ الفائضَ عن طموحِ عاشقٍ منكود الحظ مثلي وارتفع صوتُ دقات قلبي حتى خلتُ بأنها تسمعه لكني صممتُ ألا أتراجع عن قراري حتى لو كان الصدَ نصيبي فلم أعد أحتمل كتمان شوقي لرؤيتها ومشاعري نحوها. شجعتني ابتسامتها العريضة وتحيتها الصباحية التي لا تخفي الاهتمام الخاص بي على تجاوز ترددي. أعدتُ كبريائي وأنا أرد على تحيتها بطريقة ممثلٍ حفظ دوره جيدًا. فتحتُ باب البناية الخارجي مفتعلًا أريحية الجنتل مان أو الدونجوان ذي الخبرة العميقة في عالم النساء بل بالغتُ بالأمر قليلًا إذ وضعتُ كفي على كتفها وأنا أدعوها لتسبقني في الخروج. انزلقتُ من فرجة الباب برشاقة دولفين وسارتُ أمامي بخطوتين محركة عجيزتها بأنوثةٍ صارخة. انتعظتْ فحولتي فطويتُ

المسافة بيننا بخطوة واحدة ومشينا معًا بخطوات وئيدة نحو موقف الباص الذي يبعد بضعة أمتار عن بناية سكننا.

في المساء وحسب الموعد طرقتُ الباب دونما تردد أو قلق بل بمشاعر ثلجية كأن النهار الذي انقضى ما بين لقائنا الصباحي والآن طوى فصلًا من فصول السنة. أطلتْ عليَّ من فرجة صغيرة لاح لي خلالها وجهها شاحبًا بوجنتين مجعدتين وعينيين غائرتين تجمّد الكحلُ على رموشها كخيوطٍ من قار وشفتين بيضاوين وقد غطى الزبد زاويتي فمها. فتحت الباب وأشارتْ إليَّ للدخول بحركة كسولة من يدها لا تخفي الامتعاض فدخلتُ مسرعًا. وقفتْ وسط الصالة بقميص نوم زهريّ. تمطتْ رافعة ذراعيها إلى الأعلى لتطرد النعاس فارتفع القميص كاشفًا عن نصف عجيزتها. مدتْ إلي يدها ماسكةً ذراعي من مرفقها لاوية عنقها إلى الجهة الثانية ثم سارتْ أمامي فانقدتُ خلفها بإذعانٍ إلى السرير.

.....

.....

ارتديتُ ملابسي على عجلٍ وأنا أنظرُ إلى الأرض متحاشيًا النظر إلى المرآة الكبيرة التي احتلتْ نصف جدار غرفة النوم. ودون أن أتطلع إليها رميتُ على طاولة صغيرة ورقةً من فئة الخمسمائة وغادرتُ الشقة بسرعة من يحاولُ الهروب من مكان الجريمة. سمعتُ خطواتها خلفي ومع دورة المفتاح سمعتُها قد أطلقتْ زفرةً مَنْ تنفس الصعداء.

حينما دخلتُ شقتي أسرعتُ إلى الحمام وتقيأتُ سمًّا أصفر له رائحة خميرة عفنة. بعد أن رششتُ وجهي بماء بارد ارتميتُ على الصوفا ورحتُ أعبُّ بعمقٍ من أوكسجين عزلتي زافراً بغيظٍ ما امتلأتْ به رئتاي من دُخَان الخيبة. كانت بي رغبة للضحك أو البكاء ولكني لم أضحك أو أبكِ وإنما نمتُ نومًا عميقًا كالموت.

سرّ اللعبة

رأيتُ جاري كبيرَ السنّ خارجًا من المبنى الذي نقيم فيه متكئًا على عصاه وقد تجاوزت الساعة منتصف الليل والطقسُ بارد جدًا والرياح تقلعُ الراسخَ من الأشياء. هرعتُ إليه ظنًا مني بأنه بحاجة إلى مساعدة غير أنه سحب ذراعه بقوةٍ من قبضتي وقد بدت علاماتُ امتعاضٍ وغضب على وجهه. ولكي أبرر تطفلي سألته:

"إلى أين أنتَ ذاهب في هذا الليل؟"

تطلعَ إليَّ بعينيه المتواريتين تحت حاجبيه الكثَين وقالَ بهدوء وكبرياء:

"لألعب".

قلتُ مبتسمًا:

"بماذا تلعب؟"

حرّك رأسه بطريقة لم أفهم مغزاها ودون أن ينظرَ إليَّ قال:

"بأيّ شيء".

وخطا مبتعدًا عني دافعًا قدميه بصعوبة متمتمًا بكلماتٍ طغى عليها صوت لهاثه فلم أستطع التقاطها بوضوح. لم أشفقْ عليه ولم أسخر منه ولكني أردتُ ممازحته فناديته بودّ:

"هير ياكوبسن هل لي أن أشاركك اللّعب؟"

التفت نحوي وتطلع إليَّ بصمتٍ حسبتُ أنه استحسنَ الفكرة. هرعتُ إليه بنطةٍ واحدة. وضعتُ كفي على كتفه بتودد فدفعها بغيظٍ وقد بدا الغضبُ مستعراً في عينين كشرفتين يرتعشُ الضوءُ فيهما. رفعَ سبّابته المرتجفة أمامَ وجهي حتى لامستْ أرنبةَ أنفي وقالَ بلهجةٍ تشبهُ التأنيب:

"اسمعْ.. ! لكلّ لعبةٍ سرّ... إن اشتركَ فيها اثنان فَسَدَ سرّها".

هززتُ رأسي إعجاباً بما قاله وموحياً إليه أني أتفق معه. وقفتُ أراقبه وهو يبتعد عني متجهاً نحو الغابة القريبة من المبنى الذي نقيم فيه.

النهد

تطلعتْ إليّ بنظراتٍ كسيرةٍ.. نظراتٍ منخذلةٍ خجولةٍ.. نظراتِ طفلٍ سقطتْ من يديه تحفةٌ ثمينةٌ وانكسرتْ.. نظراتِ ساهٍ مطعونٍ بخنجرٍ في الصدر.. نظراتٍ تخلو من الخوف لكنها طافحةٌ بالشفقة على هذا الكائن المرتعش يدحرجه الفراغُ لاهثًا ليحاول اللحاقَ بالسرير الذي راح يدفعه عامل المستشفى بخطواته السريعة وبحياده البَطِر.

ضغطَ على زر المصعد وانتظر. تطلعتُ إليها من خلف قامة العامل الضخمة. كانت ترقد على السرير بملابسها البيضاء مثل ملاكٍ مذنب عيناها مسمّرتان على كل نقطةٍ في الفضاء متحاشيتان النظر إليّ وذراعاها مشتبكتان على صدرها تضمّان نهديها إلى أعماقها بحرصٍ وألمٍ.

انفتحَ بابُ المصعد فدفعَ العاملُ السريرَ إلى جوف الحائط ضاغطًا على زر الهبوط إلى الطابق السفلي حيث غرفة العمليات ليُنهي مشهدًا بلحظةٍ هي بالنسبة إليّ آخرَ نَفَسٍ أختطفه من هذا الهواء الضنين قبل أن يتدلى جسدي مشنوقًا بحبل الصمت جاحظًا بنظرةٍ تلتهم الفضاء.

هرعتُ إلى خارج المستشفى رغبةً في الخروج من جسدي

الضيق. كان الثلجُ ينهمر بغزارةٍ وقد غطّى الممرات والحديقة حتى غدت الأشجار مثل قامات أموات خرجوا من قبورهم بالأكفان. أزحتُ الثلجَ عن المصطبة بحركةٍ غاضبةٍ وارتميتُ عليها متجاهلًا نظرات الآخرين الذين احتموا من العاصفة خلف الواجهة الزجاجية لمدخل المستشفى. كانت نظراتهم المشفقة متمركزةً على هذا الأبله الذي لم يأبه لبرودة الطقس الشديدة والعاصفة الثلجية التي لم تتوقف منذ ليلة الأمس والحق معهم فهم لا يشعرون مثلي بالأسياخ النارية التي غرزتها في جسدي نظراتٌ لا يستطيع وصفها حتى الشعراء.

أغمضتُ عينيَ وأنا أتخيلُ ما يجري الآن في غرفة العمليات بدءًا من غرز إبرة المخدر متخيلًا وجه حبيبتي وجفنيها الناعسين وهما ينطبقان شيئًا فشيئًا وجسدها الرقيق مسجى بانتظار حقد المشارط وحتى مشهد الطبيب وهو يحمل على راحة كفّه نهدَ حبيبتي ببصمات عشقي وتأريخ قبلاتي ليرميه في سلّة المهملات بعبثٍ وتقزز خالعًا قفازيه ببرودة جزّار يغسل سكينه من دم الحمل الذبيح.

.... وكوثنيَ رحتُ أردد صلاتي بخشوعٍ لإلهٍ مبهمٍ وجميل:

"باسمكَ أيها الرؤومُ الرحيم
باسمكَ أيها الشامخُ المهيمن
باسمكَ أيها الجبارُ المرتعش
المتكبرُ المستكين
الباطنُ الظاهر

باسمكَ أيها الشجاعُ الموارب
الخجولُ المنتفض
العنيدُ الراضخ
العفيفُ المُندلق
الرابضُ الناهضُ
الراغبُ الرافضُ
الكاسرُ الوديع
باسمكَ يا ذا الفتنة والدلال
باسمكَ يا منبعَ الحنوّ ومنهلَ الشهوة
باسمكَ يا قبلةَ الشعراء وعبقرَ الهائمين
باسمكَ يا غايةَ العشاق وملجأ الخائفين
باسمكَ يا بدءَ الخلق ويا منتهى الصفات

.....

قبل أسبوعٍ وبمثل هذا الوقت تماماً كانت تجلس جواري مرتعشةً وكفاها اللتان تندتْ راحتاهما بدبقِ القلق مستكينتان بين كفيّ المكابرتين حينما دخلَ الطبيبُ وابتسامة خجولة تلوح على شفتيه حتى حسبنا أنه جاء لينقل لنا معجزة من السماء. جلس خلف مكتبه مفتعلًا الهدوء غير أن مسارَ نظره الذي لا يستقر على جهة متنقلًا بين زوايا الغرفة ووجهينا كان فاضحاً لارتباكه ولفداحة ما ينوي إخبارنا به. ركّز كوعيه على سطح المكتب شابكًا أصابع كفيه ببعضها وقال دون أن يرفع عينيه:

"لحسن الحظ أننا اكتشفنا الخبيث في الثدي قبل أن ينتشر في أعضاء أخرى".

توقف قليلًا ثم استأنف كلامه ببرودة قاسية وكأنه تذكر كبرياءه الطبية التي يجب ألاّ تهزم أمام حالة ليستْ هي الأولى ولا الأخيرة في حياته المهنية:

"لنشكر الله أن استئصال الثدي سيقضي على المرض نهائيًا"

التفتتْ إليّ كأنها تأخذ مني الأذن بالموافقة على استئصال عضو عزيز مشترك بيننا. هززتُ رأسي بإشارة لا تدل على شيء. تطلعتْ إلى الطبيب هازة رأسها بالموافقة... وأجهشتْ في البكاء.

الفصل الخامس

لا أتذكرُ أني ارتكبتُ في حياتي جريمةً كي أرمى في السجن طوال هذه المدة ولا أتذكر أني وقفتُ في قفص الاتهام لكنَ صوت القاضي لا يزال يئز في أذني وأسمعه بوضوح وهو يتلو قراراً بالسجن المؤبد على هذا المجرم الخطير (الذي هو أنا) ومازلتُ أسمع صوتَ امرأة يأتي من بعيد من عمق قاعة المحكمة المعتمة أو من عمق الأرض أو من مكان لا تعرفه علامات الإشارة. كانت تصرخُ بغضب واحتجاج "كان ينبغي أن يُحكم بالإعدام..." فتردد خلفها أصوات كثيرة أسمعها قادمةً من كل الجهات "إعداام.. إعداام.. داااااام......".

... وعلى الرغم من تدخل القاضي بخجلٍ واعتذار موضحًا لهم أن قرار الإعدام قد ألغي منذ زمان طويل وأن عقوبة السجن المؤبد أقسى على المجرم من عذاب لحظاتٍ قليلة يخلد بعدها إلى الراحة الأبدية غير أن هذه الحجة لم تقنع المحتجين (كما يبدو) فارتفعت أصواتهم مدويةً كصليةِ رشاشٍ "إعداام.. إعداام.. داااااااام".

أي جرمٍ ارتكبتُ؟ لا أدري. ربما كنتُ أدري ونسيتُ لطول المدة فأنا لم أعد أتذكر عدد السنوات التي قضيتها في هذه الزنزانة الغريبة.

زنزانتي لا تشبه زنازين العالم كله وعلى مدى تأريخ السجون فهي لم تكُ ضيقةً أو بلا نوافذ بل على العكس تماماً هي واسعة جداً وبلا جدران أو سقف وهذا ما يزيد من وحشة النفس. ليتها كانت ضيقةً وفيها نافذةٌ صغيرةٌ يطلّ منها السجين على الفضاء الخارجي فيمرّ الوقت سريعاً وهو يتأمل ما يُسمح للعين بالتقاطه نأمةً.. حركةً من طائر.. شعاعاً محمّلاً بالغبار يتسرب إلى الداخل.. حفيف غصنٍ.. ورقةٌ تسقط.... ليظلّ يحلم باتساع مدى الرؤية ليشمل الفضاء الخارجي متشبثاً بقضبان النافذة كغريقٍ يدرك معنى النجاة.

لكن زنزانتي هي الفضاء الخارجي نفسه بكل تضاريسه وكائناته وفصوله السنوية الأربعة التي تتكرر باستمرار دون أن تترك أثراً في النفس التائقة للانفلات من دوامة التشابه حتى حسبتُ (محاولةً مني لاجتراح حلمٍ ما) أن هنالك فصلاً خامساً رحتُ أنتظره بشغفٍ محاولاً تجنب ما تسرّبه الهواجس في نفسي المشاكسة التي كانت تسخر مني فتؤكد لي وجود الفصل الخامس ولتمعن في تعذيبي توحي إليّ بأنه مرّ ولم أشعر به.

" أن تكون سجيناً في زنزانةٍ ضيقةٍ أهون ألف مرةٍ من أن تكونَ حبيسَ الفضاء اللامحدود".

هكذا قال لي سجين مرّ من هنا يوماً قبل أن ينتحر.

ميووووووو

باءتْ بالفشل كل محاولاتها لإخراجي من كآبتي فهي ومن خلال حياتنا المشتركة التي قاربت الثلاثين عاماً عرفتْ عني كلّ صغيرة وكبيرة. عرفتْ نوبات فرحي المباغت وحزني غير المبرر نوبات جنوني نزواتي الغريبة غضبي المفاجئ رضاي.... إنها زوجة مثالية ولو لم تكن ابنة حلال (كما يقال) لتركتني في السنة الأولى لزواجنا وربما في شهر العسل لكنها تفوقت على أيوب بصبرها وحلمها. فلم تشكُ أو تُبد تذمراً بل ازدادتْ حُبّاً لي غير أن هذه المرة تختلف عن سابقاتها فقد امتدتْ نوبة كآبتي إلى أكثر من أسبوع... لم أنم خلالها لحظة واحدة وهذا ما جعلني مستفزاً أكاد أمزق الهواء بأظافري.

... وبالرغم من إصرار زوجتي على إخراجي من صمتي بإلقاء أسئلة كثيرة وبمختلف الاتجاهات إلا أني لم أنطق بسوى كلمات متقاطعة أو همهمات أنا نفسي لا أفهمها. لم تيأس بل ازدادتْ إصراراً كأنها تراهن مع نفسها بكل ما تملك من أوراق ربما أرادتْ أن تجعل هذا الرهان هو الأخير أو مبرراً لإعلان نفاد صبرها من سطوة هذا التمثال الحجري المتسلط بضعفه. جرّبتْ طرقًا ووسائل لم تجربها من قبل. ملأت سطح الطاولة بأنواع المازات وراحتْ تمثل

دور النادلة الماهرة. تملأ كأسي وتقف أمامي تتلوى منتظرةً أي أمرٍ يصدر عن السيد هارون الرشيد لتلبّيه بتفانٍ وعبودية. رقصتْ لي كجاريةٍ خبيرة على أنغام موسيقى صاخبة هازةً نهدين مازالا يقويان على الثبات ببقيةٍ من كبرياء وشموخ. ارتدتْ ملابس نوم تشفُّ عن لباس (أبي الخيط) زهري اللون كانت تسميه المُدهش [التسمية وحدها كفيلة بإخراج الشاكل من حزنه] غير أن كآبتي كانت كثورٍ حرون.

أخيراً عجزتْ. نعم عجزتْ... هكذا حسبتها.

لم تعلن عن يأسها لكنَ عدوى الكآبة انتقلتْ إليها فانزوتْ في غرفتها تاركةً إياي لكوابيس يقظتي حتى شعرتُ بتأنيب ضمير ضاعف كآبتي.

أمس وأنا جالسٌ في الصالة أحدقُ في زاوية بعيدة فُتحَ بابُ غرفة النوم وتسللت منه زوجتي بهدوء تمشي على ركبتيها ويديها وبعينين صفراوين تلمعان في ضوء الصالة الشحيح. تشاغلتُ عنها كأني لم أرها لكني شعرتُ بخوفٍ من جنونٍ قد أصابها. تقدمتْ مني بحذر حتى توقفتْ جنب الكرسي وقد ارتفع صوت تنفسها كأنها تلتقط الهواء بصعوبة. راحتْ تشمشم قدميَ محتكةً بساقيَ اللتين تخشبتا. تطلعتُ إليها بشفقةٍ ولوم. وضعتُ يدي على رأسها ممسداً شعرها نزولًا على ظهرها حتى عجيزتها التي ارتفعت حالَ ملامستي لها وراحتْ تحرك ردفيها بغنج واضح. أمسكتها من كتفها بقبضة قوية محاولًا إيقاف لعبتها الساذجة. رفعتُ رأسها وتطلعتُ

نحوي بنظرة جادةٍ لا تخلو من حقد متحفز للوثوب حتى خطر في ذهني أنها ستنشب براثنها في وجهي لكنها وبدلًا من أن تنفخ علي قالت بصوت هامسٍ مغناج:

"ميووووو"

شعرتُ بانفراج شفتيَ بابتسامةٍ راحت تعرض حتى تحولت إلى ضحكٍ وقهقهاتٍ عالية ولكي أجاريها في لعبتها هذي رحتُ أموء بصوتٍ فحولي أجش:

"ميووووو"

وضعتْ رأسها في حجري فتوقعتُ أنها ستنفجر كعادتها في الضحك أو البكاء غير أنها كانت هادئةً جدًا. لحظات مرتْ ثم ارتفع شخيرها كقطةٍ تنام مطمئنة لما حولها.(*)

(*) زوجتي لم تسمع بكافكا ومسخه فهي لم تشغل نفسها مثلي بترهات الكتب.

اللصوص

وضعَ الكتاب مقلوبًا على الطاولة حينما فتحت طفلته البابَ وهي تغطي عينيها لتتفادى ضوء الصالة. فتح لها ذراعيه فأسرعتْ نحوه وارتمتْ في حضنه. احتضنها فتشبثتْ برقبته وراحتْ تقبله وجسدها الصغير يرتجف بين يديه.

"أنا خائفة"

كانت ترددُ فغطاها بجسده خوفًا من أن يصيبها حجرٌ من ذلك الحطام أو شظية تأتي من جهةٍ ما من هذا العالم. مسحَ بكمّه دمعتين سالتا تنحنحَ كي يزيلَ عبرةً تكسرتْ في صدره وكادت تخنقه ثم سألها بصوتٍ متهدج:

"مَ تخافين؟"

"لا أدري".

أجابتْ وهي تدفن رأسها تحت إبطه.

لفَ خصلات شعرها خلف إذنها وراح يمسد شعر رأسها الطويل حتى هدأت أنفاسها فانقلبتْ بين ذراعيه. وضع يده على جبينها وحينما تأكد أنَّ حرارتها طبيعية رفعها قليلًا وقبلها ففتحتْ عينيها وارتسمتْ على شفتيها ابتسامة هادئة. راح ينظر في صفاء عينيها السوداوين متمتمًا بكلماتٍ تخرج من أعماقه دون إرادةٍ منه بل إنه

كان حتى قبل دقائق يسخر منها ويكفر بقائلها. امتدتْ يدها الصغيرة تفلي لحيته محاولة التقاط الشعرات البيض التي انتشرت عليها. لمحَ في عينيها سؤالًا غريبًا وقد اعتاد على إلحاحها بطرح أسئلة غريبة يقف عندها عاجزًا عن إيجاد طريقة مبسطة لتوضيح إجاباته.

"بابا.. وهل ينام الله؟"

"لا".

أجاب متحفزًا لسماع ما هو أغرب من ذلك فقد خبرها كيف تبدأ بسؤال ثم ترميه بسيلٍ من الأسئلة وتلح عليه بالإجابة:

"لماذا لا ينام الله؟"

ارتفعت ضحكته فارتسم على وجهها سؤال لم تبح به ولكنه لاح في عينيها ساخرًا وكأن لسان حالها يقول "وهل هذا السؤال يستوجب الضحك؟" شعر بخجلٍ فصمت قليلًا ثم أجابها بفرحٍ مَنْ وجد جوابًا يلائم خيالها الطفولي:

"الله.. يا ابنتي.. لا ينام.. لكي.. يحرس الأرض".

مطتْ شفتيها وهي تردد:

"فهمتُ.. فهمت".

وحينما تطلع في وجهها مستفسرًا بصمت عما قد تكون فهمته تطلعت إليه بنظرات حادةٍ وكأنها أدركتْ ما يدور في ذهن أبيها فقالت:

"نعم.. إنه يحرس الأرض كيلا يسرقها اللصوص".

احتضنها فخوراً بذكاء ابنته التي لم تتجاوز الخامسة من عمرها.

كانت قناة التلفزيون تنقل مباشرة مشهد طائرة الـ B52وهي تحلق بعيداً في السماء وترمي حممها ومشهد رجال يُخرجون أشلاء طفلة من تحت الأنقاض. وضع كفّه على عيني طفلته كيلا ترى مشهد الأشلاء والدم إلا أنها كانت نائمة بوداعة واطمئنان. ردد مع نفسه بخيبة وحسرة:

"سرقوها يا ابنتي.. سرقوها..."

أولادُ الكلب

الصبيّةُ التي هجرها حبيبها سألتْ أباها:

"لماذا يتصرفُ الرجالُ هكذا؟"

"لأنهم كلاب".

أجابها دون أن يرفع رأسه عن الكتاب. شعرتْ باطمئنانٍ لجواب أبيها. مسحتْ عينيها ولاحتْ ابتسامةٌ خجولة على شفتيها. احتضنتْ أباها فخورةً بحكمته التي وجدتْ فيها عزاءً لها. أزاحتْ الكتابَ من أمامه بنزق طفلةٍ بريئة وسألته:

"ولماذا لا يكونون مثلك؟"

تطلعَ إليها ساهماً ثم عادَ إلى كتابه وهو يردد:

"لأني ابن ستين كلب".

عبّاس بن فرناس

لستُ موهومًا والحمد لله فأنا (وأعوذ من كلمة أنا) رجلٌ يعرفُ قدْرَ نفسه بلا مآثرَ أُذكر بها ولا مساوئَ شاذة تميزني عن غيري فيشار إليَّ بسببها. أنهيتُ دراستي في بلدي بشكلٍ مقبولٍ كأيِّ شابٍ من أبناء جيلي وقبل أن أمارس عملًا ساقتني الأحداثُ كبقية القطيع إلى حربٍ لا أعرفُ كيف ابتدأتْ وكيف انتهتْ. نجوتُ من الموت بمحض مصادفةٍ وبالمصادفة أيضًا دخلتُ السجنَ مرةً لتشابه اسمي مع اسم شخصٍ مطلوب بتهمةٍ لا أعرفها فاسمي من الأسماء الشائعة في بلدي ولهذا الأمر مساوئُ وحسناتٌ فهو على الرغم من أنه أدخلني السجن بتهمةٍ أنا بريء منها كبراءة الذئب من دم يوسف إلا أنه أفادني كثيرًا حيث جعلني في غفلة السلطان رقمًا ضائعًا في قائمة الأرقام المتشابهة لا يثير الشبهات فأنا رجل أخافُ سوءَ الظنِّ وأتحاشى المشاكل بلا طموح ولا إرادة تدفعني الغريزةُ للتحرك وسط القطيع خوفًا من التقدم أو التخلف فأكون هدفًا سهلًا للذئب لذا فغريزةُ البقاء وحدها ما دفعني للهرب تاركًا البلد بعد أن استشعرتُ خطرَ حربٍ أخرى وشبكة الانفجار (أو بالأحرى غيري هو من استشعر الخطر) فنجوتُ من موتٍ قادم حتى وصلتُ إلى هذا البلد النائي في شمال الأرض لا تفصلني عن هاوية الأفق سوى خطوات.

هنا انتهت رحلتي حيث توفر لي في هذا البلد مستقرٌ آمنٌ وعزلةٌ فاتنة.

... ولأني لا أجيد أيّة مهنةٍ وليس في العمر متسعٌ لكي يتمَ تأهيلي لأبدأ من جديد فقد احترموا شيبتي وتركوني أقضي ما تبقى لي من أيامٍ في معتزلي النائي مكتفيًا بما يدفعونه لي من مساعداتٍ تسدّ رمق الزاهد وتحفظ ماءَ كرامته.

لست مكابرًا لأقول إني في جنة فالغربة جرحٌ فاغرٌ لا يتوقفُ نزيفُه والوحدةُ سعلاةٌ يجسّدها الخوفُ والظلام والموتُ جزارٌ عنيفٌ يتربصُ بهذه الشاة يعلفُها للحظة قادمة لا محالة وهذا ما يخيفني كثيرًا لذا لا بد من شيء يشغلني عن خوفي وكوابيسي. أستيقظُ صباحًا بعد أن استنفدَ كلّ طاقتي على مراوغة اليقظة واستدراجِ الغفوة أو التشبث بحلمٍ جميلٍ فرّ قبل اكتماله. أقضي وقتًا ليس بالقصير في انتظارِ ساعي البريد يأتيني برسالةٍ من هناااااك تُشعرني بأن مازال هنالك من يتذكرني وتهمّه أخباري وحينما يأتي ساعي البريد ويمرّ بكلّ الأبواب إلا بابي لا أشعرُ بالحزن بل بأملٍ أدخره للغد فيشغلني الانتظارُ عمّا هو أسوء منه. أغطس في حُجْرِ الكرسي جمرةٌ خامدة ضاغطًا على أزرار الريموت كونترول مقلبًا قنوات التلفزيون باحثًا عن نشرات الأخبار وأزيزُ مذياعنا القديم ينخرُ أذني ووجه أبي عابسًا ملتصقًا بالمذياع لا يفارقني.

.. حتى حلّ القادمُ العظيم فكان رحمةً بالغريب رفيقًا للوحيد حانيًا عليه حنوّ وطنٍ حقيقي بأبنائه. سارعتُ إلى شراء جهاز

كومبيوتر مع كافة ملحقاته من سمّاعات للصوت وكاميرا إلى طابعة وعددٍ من الاسطوانات المدمجة. سجلتُ اشتراكًا في الشبكة الإلكترونية ورحتُ أقضي معظم الوقت بين قراءة الكتب التعليمية وبين تطبيقها حتى تعلمتُ الكثير من أسرار هذا الجهاز المذهل. لم أعد أنتظر ساعي البريد إذ ما عاد يثير لهفتي بل إني صرتُ أسخرُ من انتظاري السابق له كلما سمعت صوت دراجته البخارية وهي تمرق سريعًا من أمام البناية. أطالعُ صحفًا كثيرة وأشاهد نشرات الأخبار فأشفقُ على أبي وهو يجاهد لالتقاط صوت مذيع إذاعة لندن الخافت وسط شخيرِ مذياعنا القديم أصغي إلى الموسيقى وأسمع الأغاني القديمة فتذكرني بسنوات صباي القاحلة أشاهدُ أحدثَ الأفلام المنتجة في العالم وأفلامًا بالأسود والأبيض وأحيانًا أشاهد أفلامًا أخرى لكنّ للدهشة حدًّا وصلتُ إليه سريعًا بعد أن أُتخمتُ من آلاء هذا المخلوقِ الخالق ومع مرور الوقت لم تعد الصحفُ تثير فضولي كثيرًا ولا نشرات الأخبار المثقلة بمآسي البشر الزاحفين إلى زوالهم فلم أعد أقرأ سوى العناوين غير أني وجدتُ متعةً أخرى في محرك البحث. أختار ما أرغبُ سماعه أو قراءته حيث أكتبُ اسم كاتبٍ أو مؤلفٍ موسيقي بل حتى اسم راقصة شعبية فُيفتح أمامي عالمٌ من الأسرار والمعلومات.

أمس خطرتْ لي فكرة لم تخطر في ذهني من قبل فأنا (وكما قلتُ سابقًا) لستُ موهومًا وأعرف أني رجلٌ بلا مآثرَ أو مساوئَ تجعلُ مني خبرًا تتناقله الصحفُ أو المواقع الإلكترونية وكذلك لست

عاشقًا لذاتي تُمتعني رؤيةُ صورتي أو اسمي منشوراً بل أنا أتحاشى الخروج من الدائرة وأخاف النشوز الذي يلفتُ الأنظار إلي. وجدتُ بالفكرة أمراً جديداً أثار فضولي. كتبتُ اسمي على مؤشر البحث وانتظرتُ بيقينٍ ظهور عبارة (لا نتائج واضحة لهذه الكلمة) غير أني فوجئتُ بعكس ذلك فقد ورد اسمي بما يقارب مليون مرة. رحتُ أتابع ما نُشر باهتمامٍ فاكتشفتُ أنَّ أشخاصًا كثيرين وعلى امتداد قارات العالم يحملون الاسم نفسه مفكر أديب شاعر سياسي مطرب مخرج سينمائي قوّاد قائد عسكري عميل مخابرات مطلوب للعدالة رئيس غرفة تجارة شهيد.... الخ لكن بالتأكيد ليس من بينهم أعزل يقيمُ في أقصى شمال الأرض قريبًا من هاوية الأفق وهذا الأمر لا يغيظني فأنا أعرف قدر نفسي". إذنْ لأجرب اسمًا آخر " قلتُ. خطر في بالي أن أشاكس هذا الجهازَ العارفَ بكلّ الأسرار وأكتب اسمًا يربكه فاخترتُ (فلان بن فلان) ولكني توقفتُ عن كتابته حيث أن إيقاع الاسم أوحى إليَّ ولسبب أجهله باسمٍ آخر كان يُضحكني في طفولتي فكتبتُ (عبّاس بن فرناس). فوجئتُ بأن مؤشر البحث قد عرض أمامي عددًا قليلًا من النتائج لا تصل إلى عشر النتائج التي عرضها عن اسمي غير أن الفارق كبيرٌ جدًّا فكلّ النتائج المعروضة هي لشخصٍ واحد إذ لم يكن هناك مطربٌ اسمه عباس بن فرناس ولا شاعر ولا شهيد ولا عميل مخابرات ولا.. ولا.... إنه اسم لشخص واحد لم ولن يتكرر.

"هذا هو الفارقُ بين حالمٍ..... ومستكين".

رددتُ مع نفسي بحزنٍ شديد حزن منْ أدرك ضآلةَ وجوده بعد نوات الأوان.

لكنْ.....

.....

.....

بعد قليلٍ سأصعدُ إلى سطحِ البناية ذات الطوابق الخمسة عشر وسأحاولُ الطيران.

هايكو

لاحتْ على وجهها علاماتُ فرحٍ وانتصار حينما رأتْ زوجها واقفًا أمام معرض سيارات (تيوتا). لوّحتْ إليه وأسرعتِ الخُطى نحوه. خمّن ما يدور في ذهنها فهي لم تكفْ منذ ثلاث سنوات عن إلحاحها عليه لشراء سيارة " لكي نلحق بالآخرين... كفانا ركضًا خلف الباصات... هل نحن أقل شأنًا منهم؟..." هكذا كانت تردد أمامه بحزنٍ محتال فكان يهزّ رأسه بإشاراتٍ غامضة لا تدلّ على الموافقة أو الرفض وحينما لم يلفظ الدرّة من فمه يكفهرُ وجهها وتطلقُ زفرةً تعقبها كلمات مبهمة تدلّ على الشكوى من خيبة أملها ونكد حظها ثم تتركه لصمته صافقةً باب غرفة النوم بغضبٍ مفتعل.

"أخيرًا أذعن السيدُ لمطلبها وقرر الخروج من حفرةِ كسله واللحاق بالآخرين".

احتضنتُه من الخلف. طوقتْ خصره واضعةً خدها على كتفه بغنج أنثى تعرفُ أنجعَ الوسائل لاستفزازِ رجولة التمثال. أبدتْ ملاحظاتٍ على موديلات وألوان السيارات المصطفة بتناسقٍ جميل. أشارتْ إلى واحدة مُبدية إعجابها بحذرٍ. كان ساهمًا يتطلع إلى نقطة بعيدة وأصابعه النحيلة تهرش فروة رأسه. تشبثتُ بذراعه

وبحركة متقنة دفعته بصدرها حتى لامس نهدُها أسفل كتفه. خطا نحو بوابة معرض السيارات وقبل أن يدخل توقف كأنه صحا من غفوته فأبدى اعتراضاً بصوت هادئ:

"لا.. لا.. المشهد من الخارج أجمل".

قال فتطلعتْ إليه بذهول وسألته:

"أي مشهد؟"

وضع يده على كتفها دون أن ينظر إليها وقال:

"أشجار الكرز التي تحيط بمعرض السيارات".

حدقتْ إليه بخيبة أمل فلم يعر نظراتها الغاضبة اهتماماً وهو يردد:

"أشجارُ كرزٍ مزهرةٌ
تحيطُ بمعرض سيارات تيوتا
....."

نطتْ مثل قطة غاضبة وبنفاد صبر سألته:

"بماذا تفكر؟"

تطلع إليها بنظرات بلهاء اعتادتْ عليها وقال ببرود:

"أفكرُ في شطرٍ ثالثٍ كي يكتمل الهايكو".

النغل

في قفة صغيرة وسط دجلة الهادئ واقفٌ أدخنُ عقْبَ سيجارة وأتأملُ غروبَ الشمس بعد أن رميتُ شباكي. كنتُ أشعرُ بمرارة فأنا لا تؤلمني الخسارةُ بقدر ما يؤلمني جهلي في قواعد لعبة الحظ. فجأةً اهتزتْ شباكي. لم تكُ ثقيلةً لكن لا بد أن شيئًا قد علق فيها. سحبتها ببطء وحذر لئلا يفلت العالقُ كما في مراتٍ سابقة. نثرتُ شباكي في الفضاء فلم أرَ سمكة أو طحالبَ بل شيء غريب غير واضح الملامح. ألقيتُ الشباك في قاع القفة ورحتُ أجذف نحو الشاطئ. تفحصتُ الشيء على بقايا ضوء النهار. ارتجّ جسدي مثل مصعوقٍ حينما رأيتُ طفلًا صغيرًا بحجم الكف قد عَلقَ رأسُه في إحدى فجوات الشبكة بينما تشبثتْ كفاه الصغيرتان بخيوطها.

"نغل"

رددتُ مع نفسي شاتمًا البشرية. فكرتُ أن أرميه في النهر وأهرب غير أن ما منعني في اللحظة الأخيرة شيء أغربُ من الخيال حينما دبتْ حركة في جسده. قربته من عينيَ فرأيتُ جناحين صغيرين قد نبتا في ظهره.

ملاكٌ إذنْ خرج لي من الأساطير أو حكايات جدتي. تذكرتُ حكايةَ الصياد الفقير الذي اصطادَ حوريةً أغرقته بالذهب فاستبدَ بي

الـطـمع. أخـفـيتُ المـلاك تحت إبـطي وأسـرعتُ عـائـدًا إلى الـبـيـت. رفضتْ زوجتي إدخال "النغل" إلى البيت "حتى لو كان ملاكًا" غير أنها لانتْ بعد توسلي بها بل ازدادتْ حماسًا بعد أن رويتُ لها قصة الصياد الفقير الذي اصطاد حورية.

كان الملاكُ جائعًا فراحَ يضربُ الأرضَ بجناحيه غاضبًا. حاولنا إطعامه إلا أنه كان يرفض أي طعامٍ نقدمه إليه حتى اهتدتْ زوجتي بحسّها الأمومي إلى وسيلةٍ لإسكاته. تلقفَ حلمةَ ثديها بشوقٍ وراح يرضع. قعدتُ أمامهما وأنا أتطلع إلى المشهد فلم أستطع إيقافَ دموعي التي انحدرتْ برغم محاولتي لأبدو أكثر صلابة حتى نسيتُ طمعي بالذهب وقررتُ تبنيه خاصة وأن الله سبحانه وتعالى لم يرزقنا بطفل لحكمة لا يدركها إلا هو. ارتفع شخيره فحسبتُه قد استسلم للنوم إلا أن الصوت لم يكن شخيرًا بل لهاثًا. دقائق ثم راح الجسد يكبر ويكبر حتى غطى جسد زوجتي التي استسلمت لسطوته بل إنها تشبثتْ به غارزة أصابعها في ظهره وارتفع صوت لهاثها تقطعه كلمات بذيئة تطلقها بنشوةٍ كبيرة.

استيقظتُ غاضبًا وكفي مشدودة تمسك قبضةَ خنجرٍ وهمي تهمّ بغرزِ نصله في صدر زوجتي الخائنة لأغسل عاري على الرغم من أني لستُ متزوجًا ولا أفكر في ذلك إطلاقًا.

الفائض عن الحاجة

ترك الدفة إلى أحد أبنائه وجاء يترنح بزهو القائد المنتصر ليعلن أمامنا البُشرى عودة الحمامة وهي تحملُ غصن زيتون. ارتفعتْ زغاريدُ النسوة ورقص الرجال فرحًا بالنجاة مهنئين بعضهم بعضًا مبالغين بكيل الثناء على القبطان وحكمته. اشرأبت الأعناقُ نحو الآفاق القصية تبحث عن اليابسة وقد بدأت فعلًا بالظهور على شكلِ نقاطٍ صغيرة تلصفُ تحت أشعة الشمس التي توهجتْ بعد أن توقف المطر وهدأت الرياح.

أشار القبطانُ إلى حرّاسه وحاشيته فانتشروا على سطح الفُلك يحصون الكائنات التي أوشكتْ على الوصول إلى خط النهاية بسلام حيث إن الكثير منها قد نفقَ أثناء الرحلة. تأكدتْ لنا البشرى وصارت السلامة يقينًا حينما لاحتْ أمامنا جزيرة كبيرة تقع على مدى أبصارنا. طلبَ منّا القائدُ أن نقفَ أمامه زوجين زوجين ليسلّم كلًا منا وثيقة نجاته وإخلاصه للقيادة العليا. اهتاج الرجالُ وتراكض كلَ منهم للزاوية التي تكدستْ فيها النسوة مختطفًا أنثاه ثم تسارعَ كلَ زوجين للوقوف أمام القائد متدافعين بالمناكب لاحتلال مكانٍ في الصفوف الأمامية. حينما هدأت الضجة واصطفَ الناجون كردوسًا أمام منصة القائد الذي وقف بكبرياء يتطلع إليهم بنظرة استخفاف تفتعل الحنو وجدتُني أقف وحيدًا خارجَ النسق.

ساد صمتٌ عميقٌ حينما رفع المساعد يده مستئذناً القبطان. اقترب من المنصة بخطواتٍ تفتعل الرزانة والولاء. وجّه إلى القبطان سؤالاً بصوت هامسٍ مسموع:

"ماذا نفعل بهذا الرجل؟"

وأشار إلي ثم أضاف:

"إنه فائض عن الحاجة".

تطلعَ القبطانُ إليَ بحيرةٍ دون أن ينطقَ بكلمة. أطالَ صمته كأنه بانتظار مَن يهديه إلى حلَ لهذه الورطة. ارتفعت الأصوات:

"لنرمه في البحر..."

رفع القبطانُ يده حتى حسبتُ أنه سيُخرس أصواتَ الداعين إلى موتي غير أنه اقترب مني وبصوت هامسٍ سألني:

"كيفَ تسللتَ إلى الفُلك؟"

ودون أن ينتظرَ جواباً مني أضاف:

"كان ينبغي لك أن تهلكَ في الطوفان مع الهالكين".

المرآة

قالَ لي:

"في الشيخوخة لم يبقَ من الحب غير جنونه وثمالة قُبلةٍ هي ذاكرةٌ لشفتين ترتعشان ولا تنطقان حرفًا سوى صدى القبلة القادمِ من ارتطام السنين".

قلتُ له:

"منْ أنتَ؟"

ارتسمتْ على شفتيه ابتسامةُ إشفاقٍ أو سخرية وقال:

"أنتَ"

تطلعتُ في المرآةِ فرأيتُ وجهي وقد امتلأ بالتجاعيد.

المهرج

انتهى العرضُ وبدأ الحاضرون بمغادرة الخيمة الكبيرة. الأطفال ينفخون أكياس الذرة ويفجرونها مُدلقين ألسنتهم نحوي النساء ينظرن في مراياهن الصغيرة لإصلاح مكياجهن الذي أفسده الضحك بينا الرجال تدافعوا خارجين كأنهم تذكروا موعداً أوشك أن يحين. لم يبقَ أحد سواي خلف ستارة المسرح أتطلعُ بحزنٍ إلى ذيول المغادرين. قعدتُ أمام المرآة ورحتُ أزيلُ الأصباغَ عن وجهي الذي أتعبته المواراةُ خلف الأقنعة حتى ظهرَ الوجه الأليف الذي أعرفه في لحظات صحوي من جنون المهنة. هزَ رأسه بتحيةٍ لي. كانت على وجهه علاماتُ حزنٍ يحاول إخفاءها بابتسامة مكابرة بلهاء. اقترب نحوي حتى تلامس وجهانا وكلَ منا ينتظر الآخرَ أن يرمي رأسه على كتفِ صاحبه ويبدأ بالبكاء غير أنه رفع رأسه وبلهجةٍ تفتعل الصلابة خاطبني:

"لا بأس.. سوف يأتي اليوم الذي تحوز فيه الاحترام... سيفرضه عمرك... وإنْ لم يأتِ ذلك اليوم في حياتك فعلى الأقل سيقف بضعة أشخاص احتراماً لجلال الموت وهيبة النعش..."

زمَ شفتيه بقوة كأنه يكابد صراخاً يكاد ينفجر ثم أدار ظهره لي وخطا بضع خطوات ولكن قبل أن يغادر في عمق المرآة التفتَ إليَّ

وخاطبني دون أن يفتح عينيه:

"حتى يحين ذلك الوقت لا بُدّ من إتقان الدور ومواصلة التهريج".

لم تحتمل غياب زوجها لم تحتمل الفراغ الذي تركه لم تحتمل تخيل وجهه وهو يبكي واضعًا رأسه بين ثديي أمه المحتضرة فالتجأت إليَّ لأخفف من وحشة الوحدة. ألقت رأسها على كتفي باكية متناسية خجلها الفطري والمسافة التي كانت تفصلنا على الرغم من علاقة الصداقة المتينة التي تربطني بزوجها وزياراتي المتكررة لهما.

"عينك عليها".

قال لي معانقًا بينا وقفت زوجته على مقربة منا تمسح دموعها دون أن ترفع رأسها حتى رفع ذراعه مودعًا قبل أن يغيب في الممر المؤدي إلى صالة الانتظار فرفعنا ذراعينا.

"عينك عليها"

تكررت الجملة في أذني مرات عدة كأنها تبغي إيقاظ نخوتي الشرقية التي بدأت أشك في وجودها بعد ثلاثين عامًا من الإقامة في الدنمارك. تطلعتُ إليها فأزاغت بصرها في كل الجهات متحاشية النظر في عيني. كان القلق باديًا عليها. حاولتُ إذابة جليد الوقت وكسر حاجز الخجل الذي أحاطت نفسها به فقلت:

"لنصعد إلى الطابق العلوي.. المطل على المدرج لنرى إقلاع الطائرة".

"لا أرى ضرورة لذلك".

همستُ دون أن تنظر إلي فحسبتها لا تطيق مزيداً من قسوة الوداع غير أنها أضافت:

"لن يرانا حتى لو لوّحنا إليه".

كلام جدّ منطقي لكنه بارد خال من المشاعر. هززتُ رأسي منتنعاً بتبريرها وقد شجعني انفتاحها النسبي على الكلام للتطلع إلى وجهها. سألتها:

"هل نعود إلى البيت؟"

"لا"

أجابتْ قبل أن أكمل سؤالي فشعرتُ بأني أمام امرأة لا أعرفها امرأة بدأت تعيد مفردات حريتها بعد مرور دقيقتين فقط على غياب زوجها. أخفيت إعجابي بهذه الـ (لا) التي أزّت كرصاصة أولى معلنة ساعة الصفر للثورة أو هي أول غيث التمرد ولكي أرسل إليها إشارة بأنني مختلف عما تظن وأنني حليم استلم الإشارة قبل ظهورها قلت لها:

"إذن لا ضرورة لوجودي في المطار عندي أمر مهم علي إنجازه...."

"لالالالا"

هطل الغيث دفعة واحدة. تطلعتُ إليها مستفسراً فافترت شفتاها عن ابتسامة خجولة راحت تعرض شيئاً فشيئاً حتى تحولت إلى قهقهة ساخرة. شعرتُ بقلقٍ لم أعرف كيف أخفيه. حاولتُ

مجاراتها في الضحك إلا أن ضحكتي جاءت شاحبة متشنجة تفضح ارتباكي. أدركتْ ذلك فمسكتني من ذراعي وخطتْ أمامي فانقدتُ خلفها مثل حملٍ ضعيف.

"لنقعدْ قليلًا في كافتريا المطار!"

قالت مشددة على صيغة الأمر فهززتُ رأسي موافقًا بل منقادًا فاضحًا كذبة الأمر الذي عليّ إنجازه. رمتْ معطفها على الكرسي وبضربة حطّاب ماهر فلقتْ جبّتها. أطاحتْ بلطةُ كفها بكل الأزرار لينفلق الجذعُ اليابسُ عن جُمّارٍ تضوعتْ رائحته فبدتْ كنخلة عراقية فارعة وبحركة رشيقة أزاحت الإيشارب هازةً رأسها كأنها تطرد فكرةً متكلسة أو تزيح كابوسًا عالقًا في رموشها. تطاير شعرها الفاحمُ الطويل في فضاء الكافتريا فلفت المشهدُ أنظار الجالسين. رمتْ جسدها على الكرسي زافرةً بعمق حتى خلتُ الهواء قد امتلأ بثاني أوكسيد العراق. لم تنتظر وصول النادل إذ خاطبتني بصيغة الأمر:

"أعطني كأس ماء".

ثم أردفت برقّة خففتْ وقعَ تذمري:

"عندي صداع شديد".

نهضتُ بهمّة نادلٍ يعرفُ شروطَ المهنة. عادتْ عبارةُ (عينك عليها) تتردد في مسامعي متخذة أشكالًا أخرى وتآويلَ لم تخطرْ في بالي قبل بضع دقائق.

"عينك عليها"

هل أراد مني أن أكون جاسوساً أو رقيباً على تصرفاتها في غيابه أو أكون حامياً لها من نفسها؟ هل كان يعرفها جيداً ؟ أو أنها ممثلة بارعة تجيد تمثيل دور الجارية المطيعة؟

لم أُظهر استهجاناً لثورتها بل على العكس شعرتُ بتضامنٍ معها وحقدٍ على صاحبي الذي كان هو الآخر يبدو أمامي على غير حقيقته فعلى الرغم من عمق صداقتنا إلا أني لا أعرف شيئاً عن علاقتهما سوى أنهما عاشا قصة حب دامتْ سنوات طويلة ولم يُطفئ الفراق جذوة حبهما وحينما أسقطت القواتُ الأمريكية نظامَ صدام حسين سافر صديقي إلى العراق وعاد ومعه حبيبته. زرتهما مهنئاً غير أني لم أرها فقد انزوتْ في المطبخ. بدا صديقي حينها محرجاً لكننا اتفقنا بيقينٍ بأنها ستتغير مع الوقت.

سبع سنوات مرت ولم تتغير بل إن الذي تغير هو صاحبي فقد أطلق لحيته على استحياء وتغيرت طريقة كلامه وبدأ يتلعثم أمامي كلما تحدثنا عن ماضينا وأحلامنا حتى أصبح يتحاشى الحديث معي ويخلق الأعذار ليتجنب لقائي ولكن لمَ اختارني عيناً على زوجته أثناء غيابه؟.

بعد يومين من سفر زوجها لم تحتمل غيابه لم تحتمل وحدتها فالتجأتْ إليَّ لأخففَ من وحشتها. وضعتْ رأسها على كتفي باكية. كان جسدها يرتعش من البرد الخوف الوحشة... احتضنتها بأخوّة نبيلة لكن ارتعاش جسدها سرى إلى جسدي. حاولتُ تدارك الموقف. احتضنتها بقوة. ضغطتُ رأسها على كتفي محاولاً إبعاد نصفي الأسفل عن جذعها المهتز. أحطتها مثل حمامة بللها المطر.

كانت أنفاسها تحركُ شعر صدري الذي انتصب.. انتصب.. لعنة الله على هذه اللغة.. انتصبَ.. ينتصبُ.. انتصابًا.. مفعول مطلق.. الأمور كلها نسبية.. صار المفعول فاعلًا.. سرى الانتصابُ من الصدر إلى الأسفل.. احتضنتني بقوة.. غرزتْ أصابعها في خاصرتي.. الحمامة بللها المطر.. الرائحةُ تغيرتْ.. رائحة الدمع.. رائحة العرق.. رائحة المطر.. روائح تختلط.. الحمامة تغرز منقارها في رقبتي.. تزقزق.. فحلُ الحمام يفتح منقاره ذاهلًا أم لاهثًا.. الحمامةُ تحشر منقارها بين فلقتي منقاره.. خائفة.. هي لا تحتمل غياب زوجها.. تشدني إليها بقوة.. خائفة.. صدرها يعلو ويهبط.. أحيط خصرها بذراعي كيلا تنهار.. تباعد ساقيها كي تُعيدَ تماسكها وتكون أكثر رسوخًا على الأرض.. أدخل بين ساقيها.. يحتكان بساقي.. ألو.. ألو.. كيف تسمعني أجبْ.. أسمعكَ..أسمعكَ.. لكن هزيم الرعد يشوّش الاتصال.. الرعد؟.. أم طائرات حربية تخترق جدار الصوت؟.. أزيزُ سرفات دبابات تنشبُ أظلافها الحديدية في جسدي.. زعيقُ راجمات أصوات انفجارات قريبة.. أنينٌ.. لهاثٌ.. صراخٌ.. صراخٌ.. صراخ..

قعدتُ منهارًا على الكرسي بينا قعدتْ هي عاريةً تمامًا على الصوفا المقابلة تنفخ دخان سيجارتها وتتطلع إلى نقطة وهمية في الزاوية البعيدة.

"هل تغيرتُ؟"

سألتني وهي تحدق في عينيَ بخبثٍ لم أدرك مغزاه.

"نعمممممم... كثيييير"

ثم وبشيء من الانكسار أضفتُ:

"ولكن ليس التغيير الذي كنت أتمناه".

أطفأتْ سيجارتها بغضبٍ ونهضتْ مرتديةً ثيابها. قبل أن تغادر شقتي التفتتْ إليَّ وبعينين قادحتين يتطاير منهما شرر حدقتْ إليَّ وقالتْ بصوتٍ واضح الثقة:

"لم أتغير... أنا كما كنتُ... لكنكم..."

توقفتْ قليلًا كأنها تستدرجني إلى إصغاء المستسلم لسطوتها ثم قالتْ بقهقهة عاهرة:

"وأنتم أيضًا لم تتغيروا فمازلتم كما كنتم..... أغبياء".

عاد صاحبي من العراق فزرتُه معزيًا بوفاة أمه. لم يكن حزينًا على موت أمه بقدر حزنه على حلمه الذي تلاشى. حدثني بإسهابٍ عما شاهده من خرابٍ على الأرض وفي النفوس. كان يكرر بحسرةٍ وألم:

"لم يعد العراق كما نعرفه.. لقد تغير.. تغير.."

قاطعته ولغاية في نفسي رفعتُ صوتي:

"لم يتغير.. لم يتغير.. ولكننا أغبياء".

سمعتُ صوت ضحكة قادمًا من المطبخ غير أن صاحبي لم ينتبه لصوت الضحك ولا لكلامي فظل يردد في ما يشبه الغيبوبة:

"خراب... خراب...خراب....."

(*) ثاني أوكسيد العراق

المقهى

- ١ -

كانت ترتشف الشاي ببطء وتنظر إلى ساعتها بين دقيقة وأخرى سيدة في الأربعين بكامل مشمشها (كما قال الراحل محمود درويش) . لا بد أنها على موعد مع أحد ولا بد أن يكون المنتظرُ حبيبًا فهي لم تتوقف عن التطلع في مرآتها الصغيرة وتغيير تسريحة شعرها بقلق واضح . كنتُ أراقب المشهد بعينين منفرجتين عين تتابع حركاتها وعين تراقب مدخل المقهى . لم أكن وحدي الذي استبد به الفضولُ لمعرفة القادم بل كانت الأعينُ كلها تلتهم الفضاء بنظرات واضحة التأويل .

الداخلُ والخارجُ والجالسُ كلهم كانوا رهن إشارتها إلا أنها لم تعر اهتمامًا لأحد وحده النادلُ من حظي بنصف ابتسامة حينما دفعتْ إليه ثمنَ قدح الشاي وغادرتْ بهدوء .

صمتٌ عمّ المقهى كأن الأنفاس اختنقتْ . سقطت نظارتي وانكسرتْ . لم آبه فقد انشغلتُ في التحديق إلى الوجوه السابحة في الضباب كمعنى ملتبسٍ .

الشاعر الأعمى زبون المقهى الدائم كان غارقًا في الضحك .

- ٢ -

دخل بتوجسِ المطارَد . وقفَ عند الباب المطلّ على القسم

الصيفي من المقهى يتفرس في الوجوه كوحش يتمهل قبل اختيار فريسته. شاب نحيل جداً بوجه محترق حفر الحزنُ العراقي عليه أخاديد عميقةً وبعينين غائرتين علقَ الغبارُ على رموشهما فبدا كجندي هارب من معركة. أنزلتُ الجريدة قليلًا ورحت أراقبه بحذر. أدار نظراته على وجوه الجالسين الذين لم يفطنوا لوجوده لانشغالهم بنقاشاتهم المحتدمة أو بلعب النرد وربما اعتادوا على رؤيته حتى التقتْ نظراتنا على الرغم من محاولتي الزوغان. حدق إليَّ بنظرات ساهمة أول الأمر إلا أنها راحتْ تتمركز شيئًا فشيئًا فبدتْ لي نظرات حقد مستثار. أخفيتُ وجهي في الجريدة مفتعلًا تجاهله لكني كنتُ أرمقه بنظرات مخاتلة. انطلق نحوي مادًا عنقه كثورٍ هائج حتى توقف عند طاولتي. رفعتُ رأسي نحوه محاولًا افتعال ابتسامة ترحيب قابلها بعبوس وغضب.

"تفضل"

قلتُ وأشرت بيدي إلى الكرسي الآخر. لم يقعدْ وإنما اتكأ على سطح الطاولة فمالتْ قامته حتى خلتها ستنكسر. تطلع إلي بعينين صارمتين وقال:

"تذكرْ أنك معنيّ بالأمر"

هززتُ رأسي بإشارات غامضة التأويل. لم يقتنع فراح يكرر:

"أنت معني بالأمر.. إن الأمر يعنيك كما يعني غيرك".

رفع سبابته حتى كادتْ تلامس أنفي ثم صرخ بي والزبد يتطاير من فمه:

"أنت الأكثر منْ بينهم منْ يعنيه الأمر".

هززتُ رأسي موافقًا على ما يقول على الرغم من أني لا أعرف ما الأمر الذي أنا معنيَ به. تراختْ عضلات وجهه المتشنجة ولاحتْ على شفتيه ابتسامة شاحبة. أدار إليَ ظهره وغادر المقهى بهدوء.

- ٣ -

ارتفعت الأصواتُ من ركنِ الأدباء الغارق في دخان السجائر والأراجيل. أصابت العدوى ركنَ السياسيين والفارين من أوطانهم. تلاطمت الكلمات في ما بينها (قصيدة احتلال نثر تحرير شعر صراع طبقي مصلحة الأمة... الخ). شابان كنّا الشعر كانا يجلسان بالقرب مني وقد كدسا مجموعة من الكتب على طاولتهما. قال أحدهما:

"الفكرة تولد من الكلمات".

رد عليه الآخر بحماس:

"بل الكلمات تولد من الفكرة".

الفراغُ يشرثر ومن بين آلاف الجمل الفارغة قد تقفز جملة لا يقولها إلا حكيم.

"حقًّا هل الفكرة تولد من الكلمات؟ أم الكلمات تولد من الفكرة؟"

تساءلتُ مع نفسي.

دخل المقهى شابٌ دميمُ الوجه بصحبة سائحتين أجنبيتين جميلتين جدًا. تطلع بزهو إلى الجالسين ثم اتجه إلى طاولة فارغة.

لاعبو النرد توقفوا عن اللعب متذمرين من سوء الحظ.

- ٤ -

قعدتُ قبالة الباب تماماً. أراقبُ وجوه الداخلين وحركاتهم التي تشي بغاية مجيئهم إلى المقهى. لم أكن بانتظار أحد لكنني أحدسُ أن في المقهى مصادفاتٍ عديدة تنتظرُ التحققَ فلعل واحدةً منها تأتيني بمَنْ لم يأت منْ قبل فقد عودتني عزلتي الطويلة أن أبقى مشدوداً إلى الانتظار بسمعٍ متحفز يتوقع كل لحظة أن يرنَ جرسُ الباب أو الهاتف.

"ألستَ القائل: في المقهى الغريبُ يستدرجُ الماضي إلى النسيان؟"

"بلى ولكنه كلام شاعر لم يجد غير الشكوى والتذمر يسطر على الورق".

الورقة... تذكرتُ الورقة الممتدة أمامي بيضاء على الطاولة. كم أتمنى لو أني رسام لكي أرسم بورتريهات لهذه الوجوه بسحناتها المتغيرة فالكلمات مهما بلغتْ دقّتها تعجز عن تصوير وجه شاب مغبرَ تجاعيده خطتها ظلالٌ رمادية على لوحٍ محترق أو الخيبة التي ترتسم على وجه عاشقٍ نهض متثاقلًا بعد أن يئس من مجيء حبيبته. نعم الرسم وحده يستطيع أن يصوّر الوجه وملامح لحظته ولكن من أين لي بهذه القدرة؟

في طفولتي مرة أرشدني صديقي إلى طريقة لرسم وجه إنسان. تتلخص الطريقة بكتابة كلمة (ملح) ثم تربط نهاية الحاء بأعلى

اللام لتكتمل دائرة الوجه فتكون الميمُ عينًا وفتحة الحاء أنفًا وفمًا وهكذا.

"لن يستطيع الغريبُ أن يستدرج الماضي إلى النسيان".

.. وهكذا وجدتُني أكتب على الورقة التي أمامي كلمة (ملح) وأرسم وجهًا ماسخَ التفاصيل.

الحلم

حينما مات زوجها كانت في التاسعة والخمسين من عمرها. لم تُطلق صرخةً أو عويلًا ولم تخمش خديها أو تشق جيبها كما تفعل النسوة في مدينتنا حينما يموت لهنَ عزيز بل كان صوتها يرتفع أحيانا لتهدئة أبنائها وبناتها وتحثهم على التزام الهدوء والتصرف بكبرياء أمام قدر محتوم.

بعد انتهاء أيام العزاء السبعة بدأتْ الشائعات تتسرب إلينا. بدأتْ همسًا ثم ارتفع صوتُ النسوة جريئا وهن يتحدثن عن هذه المرأة الغريبة التي لم تذرف دمعةَ حزنٍ واحدة على زوجها متهمات إياها بصفات مثل الوقاحة والتصابي وعدم احترام العِشرة التي تجاوزت الثلاثين عامًا بل إنها لم تحترم مشاعر أبنائها الذين تجاوز أصغرهم سن المراهقة. أمي الوحيدة من بين النسوة التزمت الصمت على غير عادتها. لم تنطق بعبارة تستغيث جارتنا الأرملة غير مرة واحدة حينما أخبرتنا بأنها لم تستطع إدراك مغزى ما باحت به لها في مجلس العزاء.

"الآن لم يعد هنالك مانع للحلم".

تردد أمي العبارة عاضَة شفتها السفلى وهي تهز رأسها بإيحاء لا يخلو من الخبث والدهاء.

حيرة أمي انتقلت إليّ فاستبدّ بي فضول لمعرفة بماذا تحلم جارتنا الأرملة التي تجاوزت التاسعة والخمسين من عمرها خاصة وأني لم أر أي شيءٍ مريب في سلوكها طيلة فترة تلصصي سوى أنها كانت تجلس صامتة تحدق إلى زاوية بعيدة وأحيانًا أسمع صوتها وهي تغني بحزنٍ أغانيَ لم أسمعها من قبل فهي على العكس من النسوة الأخريات لا تشكو ولا تتذمر وحتى أغانيها لم تكن تعبر عن الخيبة وسوء الحظ كما اعتادت النسوة أن يغنين وهن يقشرن البصل أو يهززن مهود أطفالهن. مرة سمعتها تغني أغنية غريبة عن امرأة تحمل بلطتين وتصعد إلى السماء.

بعد أربعة أشهر وأحد عشر يومًا (بالتمام) على وفاة زوجها رأيتها تغادر بيتها. مشتُ بضع خطوات بكبرياء وتمهلٍ. أوقفتُ رجلًا عابرًا وسألته عن الطريق الذي يؤدي إلى (.....). هز الرجل رأسه بإشارة تدل على عجزه عن الجواب وحث خطاه مسرعًا دون أن يلتفت.

مع الأسف لم تستطع أذناي التقاط اسم الوجهة التي كانت تنوي الذهاب إليها.

اختفتْ جارتنا الأرملة منذ ذلك اليوم ولكن الغريب في الأمر أن غيابها لم يلفت نظر أحد.

كوابيسُ النائم على المصطبة

- ١ -

في مكانٍ مطموس التضاريس حسبتُه حافةَ الأرض أو خارجَ مدارِ الإدراك بيتٌ وحيدٌ يكتظ بالأساطير. لا أتذكر أني رأيتُ بابًا لكنني دخلتُ. غرفة أو كهف في مغارة تناثرتْ فيها أشلاءُ الطبيعة مثل جوارب وسخة فضاؤها خيوطُ عنكبوت وأرضها لا تُرى كأن دخانًا أو غيمًا حجبها عن الرؤية. رائحة رطوبة وغبار وجثث متعفنة. في وسط الغرفة كرسيٌ من الخيزران ومنضدة من خشبٍ نخرته الأرضةُ معلَق فوقها مصباح غطاه السخام يتدلى بسلكٍ كهربائي حسبتُه للوهلة الأولى حبلَ مشنقة. على المنضدة قصاصةٌ من جريد النخل كتبتْ عليها قصيدة كان آخر بيت فيها:

"أدردُ يقضمُ المسامير"

- ٢ -

كنتُ وحدي أقتفي الغموضَ في صحراء شاسعة. أسمعُ اسمي يترددُ بصوتٍ واضحٍ قادمًا من كل الجهات ومصحوبًا بشتائمَ بذيئة. كنتُ وحدي في الصحراء لا مضاربَ ولا مواخير. وحدها الريحُ تصفر في قفصٍ خالٍ عُلق بنجمةٍ وكان الوقتُ ظهرًا.

- ٣ -

كنتُ مارًا بسجنٍ لغايةٍ مجهولة. المكان لا يدلَ على هويةٍ خاصة

فلا كتابة تشيرُ إلى لغةٍ ما ولا ملامح تدلّ على جغرافية مدينة أو بلاد. السجنُ واسعٌ جداً تغطي مساحته كلّ ما يُسمح للعين برؤيته (من الأفق إلى الأفق). سرتُ بخطواتٍ واسعة ومرتبكة محاذيًا السور الصخري العالي. صمتٌ مطبق وما من كائنٍ يتحركُ سوى الأغنيات وحدها كانت تعبر السياج والشرطي في برج المراقبة كان مشغولًا بأغنيةٍ أليفة إنها أغنيتي التي ضلّت عن الحرية.

- ٤ -

صحراءُ صفيرٌ وعاصفة من خوفٍ. خائفًا كنتُ.. أركضُ.. أركضُ وميازيبُ دمٍ تلاحقني وقهقهات صدام حسين. تعثرتُ.. سقطتُ على وجهي. أغمى عليَ وحين أفقتُ وجدتُ أمي جالسةً عند رأسي ككثيبٍ أسود. كانت تقرأ (سفر الجامعة).

- ٥ -

صحراء. قافلة جعجعها الحرَ بعيداً عن الفرات. الصغارُ ينفرطون على الرمال يتصارخون:

"العطش... العطش..."

كانت أمي تصرخُ بنشيجٍ مُرعب وتخمش خديها بأظافرَ كالأمواس وكنّا صغارًا ندورُ حول أنفسنا ونردد أول أغنيةٍ للخيبة:

"حفر عباس بير وما طلع ماي"

- ٦ -

الكوت / العراق ١٩٦٩

في الزريبة ـ الصف كانَ يعلّم بناته أبجديةَ التسافد فكنّ يمسكنَ

برأس البقرة (بحسدٍ واضح) وهو يدفعُ
(متلمظًا) بمؤخرة الثور.

مرةً رأى ابنته تتلو على نفسها ما تيسّر من سورة (الثور) عندها لم يتذكر عبود القصاب من (كتاب الشهوة) غير آية (السكين).

دنمارك ٣ / ٧ / ١٩٩١.

عبود القصاب يرتدي زيَّ الجيش الشعبي ويحملُ سيفًا رومانيًا يطاردني في شوارع مدينة .Vejle

- ٧ -

كنتُ مضطجعًا في السرير عاري الصدر. أسحبُ أنفاسًا عميقة من السيجارة ويدي الأخرى تحت الغطاء توقظ أعضائي. الوقت يمرّ بطيئًا ودبيب الشهوة على جسدي كنارٍ تلتهم هشيمًا. كانت تقفُ أمام المرآة تسرّح شعرها الطويل وقد تساقط الروبُ الشفاف عند قدميها كشمعٍ ذائب فبدتْ قامةً من لهبٍ يتطايرُ شرره ويضيء العتمة. بعد أن أكملتْ زينتها دخلتْ المرآة... وغابتْ.

- ٨ -

كنتُ واقفًا على العتبة أنظرُ إلى الطريق منتظرًا الأمس الذي لم يأت أمس. فجأةً جاء الضيوفُ بأفواهٍ نهمةٍ كبالوعات مفتوحة. بدأوا بالعتبة....

- ٩ -

حلمتُ بأني رئيس جمهورية العراق. لا أدري كيف انتهى الحلم لكني استيقظتُ مرعوبًا خائفًا مني.

حينما رويتُ لأصدقائي الحلم راح بعض منهم يتملقني وبعض امتعض لسبب أجهله ومن بينهم من بدا سارحًا هل يفكرُ في تدبير انقلاب ضدي (في حلمه طبعًا)؟

- ١٠ -

رأيتني أقفُ في طابورٍ طويلٍ الواقفون فيه كلهم يحملون وجهي. حينما جاء دوري لشراء ما لا أعرفه وجدت أن البائع هو الآخر يحمل الوجه نفسه. حدّق إليّ. كانت عيناه مسمولتين. قال وهو يفتح كفيه أمامي:

"نفدت الأقنعة" ١٩٩١.

(*) صديقتي الدنماركية التي عاشرتها قبل دخولي الكابوس كانتْ تبكي وهي نائمة وحينما أيقظتها قالت "كنتُ في العراق". لملمتُ ملابسها وغادرتْ. لا أظنها ستعود.

دقائق الأعزل

يستيقظ الأعزل....

يقضي دقائق وهو يحاول ترتيب أفكاره وطرد ذيول الكوابيس التي لا تزال عالقة في أهدابه أو يحاول اجتراح نهاية للحلم الذي لم يكتمل هذا إذا كان حلماً أما إذا كان كابوساً فإنه يحاول تغيير مساره باتجاه آخر أو تناسيه وفي كلا الحالين فإنه يمحوه من ذاكرته حال نهوضه.

ولأن الأعزل لا يؤمن أن الأحلام تنبؤ بما سوف يحدث لذا فهو لا يشعر بخوف من فأل سيء ينتظره وإنما يكتفي بطي صفحته كأنه يطبق كتاباً أو رواية قد انتهى للتو من قراءتها خاصة وأنه يعلم جيداً بأن الواقع هنا أو هنااااااك لم يعد يختلف كثيراً عن الكوابيس سواء في تفاصيله المتنافرة على صفحة اللامنطق أم فيما يتركه من رعب.

أحياناً تخطر في ذهنه فكرة أن يدوّن كوابيسه خاصة بعد أن وجد فيها بعداً فنياً يمكن وبلمسة واحدة أن تتحول إلى قصص قصيرة أو يجمعها ضمن سياق واحد لتتحول إلى رواية كابوسية تجمع ما بين الواقع والخيال فكوابيسه على الرغم مما تحمله من شطحات وهذيان إلا أنها لم تصل إلى حد أن يرى نفسه وقد تحول صرصاراً بل إن بإمكانه أن يكتبها بطريقة مقنعة لا ينفلت فيها رمز

خارج دائرة دلالته الواقعية.

"هههههه"

ترتفع ضحكته وهو يقارن نفسه ككاتب بكتاب مشهورين كتبوا ما أطلق النقاد عليه بـ (الواقعية السحرية) حيث خلقوا لشخصياتهم البشرية ذيولًا وأجنحة أو بصاحب (المسخ) الذي جعل بطله يفيق ليجد نفسه وقد تحول صرصارًا.

" ماذا يكتبون لو عاشوا ربع ما عشتُه من أهوال ورعب؟".

يستبد به الحماس لكتابة رواية أو فصولٍ من سيرته الذاتية لكن حماسه مثل بالونٍ مثقوب سرعان ما يتسرب شيئًا فشيئًا حتى يتلاشى في خضمَ أمواج الأفكار المتلاطمة في الرأس أو ما يطلق عليها (الخَبصانات) معيدًا قناعته في أن ما يعتمر في داخله ملك له وحده وأنه ليس ندَابةً تستدر عواطف الآخرين وشفقتهم الكاذبة.

في صباه حاول الأعزل كتابة الشعر وكان يتمنى أن يكون شاعرًا معروفًا إلا أن جنونه اتخذ مسارًا آخر غير جنون الشعر إذ كان يرى من الغباء أن يبوح الإنسان بما في داخله للآخرين فما يعتمر في داخله هو ملك له وحده ولا شأن للآخرين فيه وهذا ما جعله منذ مراهقته عاشقًا فاشلًا فقد حرمته فلسفته الصامتة من اقتراب الصبايا منه بعد أن توهمن بغبائهن الأنثوي بأنه بارد المشاعر لأنه لا يجيد البوح أو تسطير عبارات الغزل التي كان أقرانه يتفننون في كتابتها وإرسالها إليهن. حاولت إحداهن مرة الاقتراب منه بدافع الفضول لمعرفة ما يخبئ هذا الشاب المتكبر والمترفع على ما يشغل

أقرانه أو بدافع الخبث لاستدراجه إلى منطقة التشابه مع الآخرين وبعد وقت قصير نفرت منه هاربةً بعد أن حدّثها عن آخر كابوس رآه وعن الخراب الذي سيحل في العالم الموغل في وضاعته بسبب تناسل الحمقى مستشهداً بعبارات غامضة لفلاسفة اشتهروا بأفكارهم السوداوية أو العبثية حفظها عن ظهر قلب كنشيد وطني أو كقصيدة حب.

وكذلك لم يتورط يومًا ما في لعبة السياسة التي مارسها أغلب جيله فقد كان يشعر بنفور من ثرثرة السياسيين وكلام الصحف ويُضحكه فقر مخيلتهم وتفاؤلهم الغبي في قراءة الأحداث بيقينية من يتلمس الأفكار لمس اليد أو كأن الحتمية التأريخية التي يتشدقون بها واقفة عند الباب ولا تفصلهم عن استقبالها سوى ثوانٍ معدودات هي ما تستغرقه طرقاتها على بابهم فكان يهزّ رأسه بحيادٍ يخفي استخفافًا لا يُظهره أمام الرفيق المكلّف لإرشاده ولتنظيمه في صفوف حزبه وهذا ما جعله يجيب عن سؤال المحقق عن سبب طلبه للجوء في هذا البلد بجملة واحدة "لا أريد أن أموت من أجل أمرٍ لا شأن لي به" جعلت المحقق يلقي قلمه على المنضدة ويتطلع إليه بنظراتٍ غريبة ثم يطبق الملف الذي أمامه وينهي التحقيق بعد أن وجد نفسه عاجزًا عن طرح المزيد من الأسئلة حتى ظنّ بأن طلبه سيرفض ويُعاد إلى من حيث أتى لكنه فوجئ بعد ثلاثة أيام فقط بأنه قد حصل على اللجوء وحق الإقامة في هذا البلد على العكس من الكثير من طالبي اللجوء القادمين من بلده وكان أغلبهم من

السياسيين والبعض منهم من المعروفين في الوسط السياسي ولهم تأريخ طويل في النضال والمعتقلات وقد تأخر الرد على طلباتهم لمدد وصلت إلى السنة وبعض منهم قد رفض طلبه.

... هكذا يقضي الأعزل كل صباح بضع دقائق في مراودة كوابيسه أو اختبار قدرته على تحمل الاختناق بعد ذلك يفتح عينيه ببطء كأنه يراوغ الشعاع المتسرب من النافذة. تمتدّ يداه متلمساً بهما جسده عضواً عضواً للتأكد من وجود أعضائه في مكانها ومن صلاحيتها ثم يجري اختباراً سريعاً لذاكرته بأسئلة عن آخر فكرة خطرت في ذهنه قبل النوم أو عن آخر وجه رآه في آخر خروج اضطراري له (ولاختبار الذاكرة عند الأعزل طقس آخر وأسئلة أخرى تخص أدق التفاصيل في سنوات حياته البعيدة).

بعد أن يتأكد من سلامة قواه العقلية والبدنية يبقى محدقاً إلى السقف بذهن فارغ. هو يعلم أنه لن يقضي يومه في الفراش لكنه يبحث دائماً عن مبررات لبدء يومه الذي لن يختلف عن أيامه السابقة فإنْ لم يجد مبرراً جديداً فمبرراته المعتادة كافية لإقناعه في النهوض مثلاً ممارسة طقسه الجميل وهو شرب الشاي والتدخين أثناء قضاء حاجته فيقضي في ذلك وقتاً ليس قصيراً وبأريحية نادرة تجعله أحياناً يحمد القدر الذي جعل في مؤخرته ثقباً يخرج منه كل ما يخفيه الجسد من نتانة ونفايات وبدونه لا يمكن أن يتخيل كم سيكون الوضع سيئاً.

مرةً رأى كابوساً مرعباً إذ رأى وقد سُد ثقب إسته وكان يتلوى

من ألمه وقد راحت الغازات تضغط على صدره فيشعر بالاختناق والنفور من الروائح الكريهة التي تخرج من فمه وهو يتجشأ مثل خنزير ثم تحول جسده إلى بالون حلق في فضاء غرفته مرتطماً بالسقف والجدران حتى انفجر. حينما استيقظ مرعوباً تذكر مقولة أمه التي كانت ترددها بيقين من له باع طويل في تفسير الأحلام:

"الدم يفسد تأويل الحلم".

"ولكني لم أرَ دمًا في الكابوس بل خ..."

لم يكمل جملته إذ شعر بالامتعاض وكأن الرائحة قد تسربت من الكابوس إلى أنفه. لم يجهد تفكيره في اجتراح تأويل لكابوسه فاكتفى بمط بوزه إلى أقصى ما أمكنه مردداً:

"أشكر الله أنَّ لي ثقباً"

وبهذه العبارة التي لا يتذكر أين سمعها يستطيع ترويض نفسه الأمارة بالجشع لكي يكسب كنز القناعة الذي لا يفنى فيعلن رضاه عن الطبيعة التي قدّرت هذا الأمر بيد أن الأعزل يدرك جيداً أن مزاجه الصباحي الرائق سيتغير بعد قليل وبالضبط بعد الانتهاء من تدخين السيجارة الأولى أو الثانية.

مرات عدةً فكّر أن يكتب يومياته (لا لشيء سوى للتغلب على الخناق الذي فرضته عزلته) فلم يجد غير ذاكرة متخمة بالخراب والفقدان ولولا موهبته وعبقريته في الهروب لما استطاع أن يبقى حيًا حتى هذه اللحظة ولكن ما شأنه بالماضي والذاكرة؟ فهو سيكتبُ يومياته وليست مذكراته. حسنًا ما الذي يكتبه العاطلُ عن

الأمل وهو منذ عشرين عاماً وأيامه نسخ مكررة من فجرها الشائخ حتى غروبها المريض يتنفس هواء لا يشبه الهواء هواءً عفناً كرائحة الأشياء المتفسخة وثقيلاً برطوبة لها لزوجة الدم. يسير في طرقات فقدتْ معالمها ونصُلتْ ذكرياتها تعفَ لغته أن تسفَ إلى وصفها. الوجوه (كأيامه) نسخٌ مكررة لا يحتاج إلى أكثر من سطرين لرسم ملامحها. أحلامه قصيرة المدى ولا تصلح للكتابة لأنه ولقصر مداها لا يريد أن يستنفدها وقد ادخرها للدقائق المهمة الفاصلة ما بين حشر جسده في لحد السرير والغفوة فقد اعتاد منذ إعلان عزلته أن يفتح كل ليلة خرْج أحلامه المتهرئ ويُخرج منه حلماً صغيراً غير قابل للتحقق ويصنع منه أيقونة وهمية تشع بضياء خافت يتطلع إليها في عمق الظلمة مستدرجاً النعاس إلى عينيه حتى تنطبق الأجفانُ من تعب التحديق فينتهي يومه.

... لكن ما حدث اليوم جعل أمر كتابة سيرته أو يومياته ملحّاً لا يعرف لماذا ربما استيقظت فيه (بعد الذي حدث له قبل قليل) الرغبة في الحياة كما تستيقظ عزيمة التشبث عند المريض الذي يخبره الطبيب بإصابته بالمرض الخبيث أو عند المحكوم بالإعدام فيرى جمالاً في كل الأشياء التي لم تلفت نظره يوماً.

استيقظ ضحى كعادته لكنه بقيَ يتقلب في فراشه ليس رغبة في العودة إلى موته الأثير بل لأنه لم يجد مبرراً لليقظة فالنهار بالنسبة إليه فراغ مدوّ يصفّر فيه الخواء لحناً جنائزياً مرعباً يجعله يدور على نفسه أو يدور في نفسه كأنه دوامة رمل في صحراء ولكن اليقظة في

السرير ليست أرحم من الدوار بل هي أشد وطأة على النفس خاصة حينما تشهر مبضعها وتبدأ بتشريح جثته فينتفض الخامد متمردًا رافعًا لواء ثورته المكبوتة أو ناشرًا شراع إبحاره في وجه رياح تعصف من كل جهات الوهم عندها يستسلم للهرب مع أول حجة تخطر على ذهنه حتى لو كانت واهيةً كمتعة تدخين سيجارة أول النهار مثلًا.

سكب الماء الساخن في كوب كبير ووضع ظرف اللبتون. مرّ وقت طويل وهو يرفع يده وينزلها بإيقاع رتيب حتى غدا الشاي داكنًا. أضاف ثلاث ملاعق من السكر وراح يحرك الملعقة بحركة دائرية فيدير رأسه على إيقاع دورانها طربًا مرددًا أغنية يكرهها وتثير في نفسه السخرية لكنه لا يتوقف عن ترديدها وهو يحرك رأسه كبندول الساعة:

"بيني وبينك حالو العواذل
حالو العواذل بيني وبينك
حالي حالي حال
بالي بالي بال
بيني وبينك حالو العواذل
حالو العواذل بيني وبينك
حالي حالي حال
بالي بالي بال
بيني وبينك حالو العواذل

حالو العواذل بيني وبينك"

ثم ينتقل إلى أغنية أخرى ولكن بإيقاع بطيء:

"الورد جميل

جميل الورد

الورد جميل

جميل الورد

الورد جميـــــــل

جميـــــــل الورد"

ليعود مرة أخرى وبإيقاع أسرع:

"بيني وبينك حالو العواذل

حالو العواذل بيني وبينك

حالي حالي حال

بالي بالي بال

....."

انفجر ضاحكًا بهستيرية ولم يتوقف عن الضحك حتى تحول ضحكه إلى سعال يخنقه. حمل كأس الشاي وذهب إلى مكانه الصباحي الأثير. ارتشف قليلًا من شايه الساخن واستسلم لخدرٍ لذيذ تسرب إلى جسده مع نَفَس عميق امتصه من السيجارة وكأنه يمتص رحيق قبلة من شفتين ساخنتين فشعر بتنملٍ في رأسه يشغله عن سطوة أفكاره السوداء.

خرج خفيفًا محركًا رأسه بحركة بندولية سريعة على إيقاع

الأغنية التي استيقظت معه وعقدت لسانه فبقي إيقاعها يتردد في رأسه. وقف عند نافذة المطبخ المطلّة على الشارع وراح يدخن بقلق وعيناه تراقبان أية حركة ففي مثل هذا الوقت من النهار يعمّ المكان سكون كالموت ولا يظهر في المشهد الذي أمامه سوى عمال النظافة أو الشيوخ الأجانب الذين جاءوا من هناك لسبب ما عادوا يتذكرونه يجلسون على المصاطب أو يفترشون الأرض وأعينهم الضيقة تحدق إلى الفراغ بخوفٍ وتوجس يدخنون بشراهةٍ ويلوكون الحديث بأفواه درداء.

"كم أكره الشيوخ والعجائز... لأني أرى الموت في أعينهم فأشعر بأسف على حياة تمرّ دون أن أجد لها مبرراً".

"ولكن ما الذي يجعلك تخاف الموت وأنت لم تعش؟"

"لا أدري".

مرّ مراهق يتهادى بميوعة. رفع رأسه نحو النافذة فلمح عينين تراقبانه عندها وبأقل من ثانية تغيرت حركته إذ فتح ذراعيه كأنه يهم بالطيران بزهو أو يتحدى ملاكماً مجهولاً.

"كم أكره المراهقين... لا حسداً وإنما أراهم كائنات غبية ومغرورة".

خطرتْ في ذهنه فكرة أن يضع قائمة بالأشياء التي يكرهها.

أكيد أن القائمة لن تنتهي فما أن بدأ بذكر الأشياء التي يكرهها حتى وجد نفسه كأنه ولد خطأ فارتفع صوت التأنيب يذكّره مشاكساً بأن ما يراه من خطأ في الأشياء لم يكن إلا بسبب عماه وأن

الخطأ كامنٌ فيه. ولكن قبل أن ينهال على نفسه بسوط السخرية لاح أمامه على الشارع العام ساعي البريد منطلقًا بدراجته البخارية. ظل يتبعه حتى مالت الدراجة نحو جهة المبنى الذي يسكنه. توقف أمام باب المبنى فتح حقيبته حمل رزمة رسائل ودخل مسرعًا. اقتربت خطواته من باب الشقة أوشك أن يرمي رسالة إلا أنه يبدو قد عدل عن الأمر فابتعدت خطواته صاعدًا نحو الطوابق العليا.

"من أين تأتيك الرسائل؟"

ردد مع نفسه مصطنعًا اللامبالاة وعاد إلى وقفته الصنمية مطلًا من نافذة المطبخ نحو الشارع الخالي وقد وجد ما سيبدأ به يومياته وارتفعت ضحكته الساخرة من شيء مجهول.

كان ساعي البريد واقفًا عند باب المبنى حاملًا في يده رسالة واحدة يتطلع في عنوانها ثم يرفع عينيه نحو رقم المبنى كأنه يحاول أن يتأكد من صحة العنوان. أثارت حيرة ساعي البريد فضول الأعزل فراح يراقبه متوجسًا من أن الرسالة تخصه وربما قد أخطأ مرسلها بكتابة الاسم أو أن حروفها مخربشة كما يحدث عادة في الرسائل التي تأتي من هناك. سيسلمها ساعي البريد إليه خاصة وأنه الأجنبي الوحيد الذي يقيم في هذا المبنى. صدق حدسه فبعد بضع ثوانٍ انزلقت رسالة من فتحة الباب. كانت الرسالة تحمل عنوانه وقد كُتب بخطّ ركيك ومرتبك ولكنها خالية من اسم المرسل إليه أو المرسل بل الأغرب من ذلك أنها كانت بلا طوابع أو إشارة تدل على بلد المرسل. تردد في فضها ولكن الفضول منعه من التفكير بأن

يتخلص منها أو يعيدها إلى دائرة البريد ففتحها بتوجس زال بعد أن رأى الرسالة وقد كتبت باللغة العربية:

"انتظرني غداً سأصل إليك فجراً. كنْ شجاعاً ولا تتردد".

وفي أسفل الصفحة كتبت ملاحظة غريبة:

"زيارتي إليك لا تتجاوز بضعَ ثوانٍ. إلى اللقاء".

أعاد الورقة إلى الظرف بهدوء وكبرياء ووضعه على طاولة المطبخ. عملتْ ماكنةُ رأسه بأقصى طاقتها في نتاج الأفكار والاحتمالات من أكثرها واقعية وحتى أشدها غرابة ثم توقفتْ فجأة كأن خللًا أصابها أو نفدتْ شحنة بطاريتها. حاول أن يهرب من هذا الشعور ففكّر أن يعد لنفسه فطوراً. فتح الثلاجة فوجد بيضتين وقليلًا من الزيتون وحبة طماطم نصفها غطاه عفن قطني هذا كل ما تبقى من مؤونة.

"ما حاجتي للمزيد؟"

ردد مع نفسه وهو يُفقس البيضة في آخر قطرات الزيت. وقع نظره على الروزنامة المعلقة على الجدار وعلى دفتر يومياته المرمي على طاولة المطبخ والذي لم يتلوث بعد بسخام يومياته. ارتفع صوته بالغناء وهو يحرك البيض على سطح المقلاة:

"دمعي روى الزيتون

روى الزيتون من دمعي"

إذن لم يبقَ سوى ساعات معدودة تفصله عن فجر الغد حيث موعد زيارة الضيف كما جاء في رسالته. وكما قلت سابقًا هي

كساعات المحكوم بالإعدام في ليلته الأخيرة حيث تختزل الحياة نفسها بحكمة فات أوان قدرتها على الاختبار لكن ماذا يكتب فلا الماضي كان جميلًا كي يندم عليه وما من مستقبل يجعله يزرع نبتةً في أرضه إذ قضى عمره يعيش اللحظة اللحظة التي توقفت في زمن لا يعنيه. لذا فقد قرر أن يكتب برنامج يومه بدقائقه عسى أن يقرأه يومًا أعزل مثله فيضيف إليه ما غفل عن تدوينه أو ليكون برنامجًا للمغتربين لترويض عزلتهم.

مسألة حسابية يتلذذ بها الأعزل على الرغم من تفاهتها إلا أنه يعيد بها قدرته على شحذ ذاكرته. وهكذا بدأ مدونة يومه بـ:

(يوم الأعزل = ١٤٤٠ دقيقة صمت)

حاول أن يكتب عنوانًا يختزل فيه حكمته أو خبرته في العزلة فكتب: (الأعزلُ عالمٌ مكتف بذاته). لم يرقْ له إذ وجد فيه ما يناقض مبرراته للكتابة فخط عنوانًا واضحًا ومبرأً من احتمالات النفاجة والتكلف:

(دقائق الأعزل)

دقائقُ الأعزل

(يوم الأعزل = ١٤٤٠ دقيقة صمت)

(*) دقائقُ... للحداد.

طقس يصعب على الأعزل التخلي عنه ليس لأن الصمت رديف للحداد الذي فقدَ جلالَ معناه وهيبةَ رمزيته لكثرة ما استهلكتْه مشاعرُ تالفةٌ ولا لأن الموت أصبح أليفًا في حياته بل لأنه يرى أيامه

توابيت تتكدس على بعضها فيبدأ يومه بتشييع أمسه. يحمل تابوته وحيداً وبخطوات تفتعل الحزنَ على إيقاع صامت يدور حول نفسه حتى يدرك حماقة ما يفعل. عندها يُعيد كبرياءه ليجعل من فكرة الموت محاضرة يلقيها على تلاميذ جاءوا إليه طلباً للحكمة.

لم تكن فكرة الموت عند الأعزل وليدة الأحداث التي مرَ بها والتي خرج منها سهواً أو مصادفةً ففي تلك الأحداث كان الموت يمرَ أمامه ولا يراه بل الموت هاجس الأعزل الذي لا يفارقه وكأن حياته ابتدأت من ختامها. حاول أن يروّضه بعد أن عجز عن إبعاده عن تفكيره.

"هي لحظة صمت أبدية"

يقول لنفسه محاولًا إقناعها بحاجة الإنسان إلى نوم مطلق بعد رحلة عبثية مطلقة ولكن "هل الحياة رحلة عبثية حقًا؟". يتوقف الأعزل قليلًا ليستعرض ما قاله الفلاسفة والمتصوفة ولكن فكرة الموت زئبقية إذ ما أن يستقر على رأي حتى يقفز إلى ذهنه نقيضه ليعود بعد ذلك إلى فكرة الخطيئة والثواب والعقاب فيقضي دقائق في حساب خطاياه فيجد في ذلك راحة حينما يدرك أن كل خطاياه لا تستوجب عقابًا أبديًا حتى لو كان الرب صدام حسين فكيف إذا كان أرحم الراحمين وغافر كل ذنب.

"هي رحلة نحو العدم".

ينكسر شيء في داخله حينما يصل إلى هذا التفكير فهو على الرغم من أنه عاش حياةً عدمية خالية من جدوى إلا أنه ظل متشبثًا

بوهمٍ يتجسد بديلًا . . لا بد من بديلٍ يعيد للحياة معناها إذ لا يمكن لعبقري مثلًا قدّم للحياة الكثير من علمٍ وأنار طريقًا للأجيال أن تطويه حفرة باردة قد يقول قائل بأنه حقق خلوده عبر ما حفره من آثار على خريطة الحياة لا يقتنع الأعزل بهذا الرأي فهو خلود زائف. لم يصل الأعزل إلى ما يقنع نفسه بفكرة تجعله يذهب إلى الموت قانعًا سوى تأجيل التفكير أو اصطناع الغفلة حتى يحين الأمر.

(*) دقائقُ . . . للتأمل.

انضمّ الأعزل يومًا إلى حلقة تأملٍ مختلطة. كان الأجنبي الوحيد في هذه الحلقة. ولأنه ينحدر من بلاد الأسطورة والأديان والتصوف فقد نالَ حظوة بين زملائه وزميلاته وإعجابًا جعل حتى من كان ينظر إليه بنظرة عنصرية يغيّر رأيه ويقف أمامه كتلميذ يتوق لمعرفة ما يحمله هذا الأجنبي من سحر الشرق الغامض. شُدَّتْ إليه الأنظار بذهول لا يخلو من مبالغة بعد أن رأوا الأعزل أمامهم بجلسته التي اعتاد عليها بينما عجز الجميع عن مجاراته معبرين عن اندهاشهم لمطواعية جسده وهو يشبك ساقيه بطريقة لم يروها إلا في صور الرهبان البوذيين وهذا ما دفع الأعزل إلى المبالغة في التواضع والتهذيب لحيازة المزيد من الإعجاب.

كان مريدًا عاقلًا دفعه الفضول لكشف السرّ. أغمض عينيه وأسبل ذراعيه على فخذيه المشتبكتين حتى تخيل نفسه (بوذا) وراح يصغي إلى موسيقى قادمة من بعيد غير أنه وفي غمرة سرحانه ضبطته (الشيخة) متلبسًا بالرغبة. سحبته من ذراع شهوته. قادته

إلى منعطف في زقاق ضيق وانهالت عليه بالقبلات.

لم يعد بعد ذلك إلى حلقة المتأملين لكنه راح يزور الشيخة سراً متلذذاً بسرّية الموقف وبالدقائق الداعرة التي كان يقضيها مع الشيخة التي كشفت له عن مكنون علمها وفنها وخبرتها بكل شيء.. بكل شيء.

في عزلته راح يمارس لعبة التأمل محاولاً ألا يقع في فخّ الرغبة حتى كاد ينفلت من دائرة أناه ليصل إلى نيرفانته.

مرةً وفي غمرة تجليه خاطبَ المطلقَ بكلمات تقطر أسى:

"رضيتُ بكل ما تفعل بي فلم لا ترضى بكل ما أفعل؟"

ناداهُ صوتٌ واضحُ النبرات:

"لأني السيد وأنت العبد".

انتفض كالملدوغ وراح يتمتم بكلمات مبهمة وشتائم لا تعني أحداً.

لكنه...

واظبَ على ممارسة طقس التأمل حيث يجلس مسترخياً ويغمض عينيه ليصغي إلى بنات أفكاره وهنّ يتراشقن بالاتهامات والفضائح ليواصل بعد ذلك ضحكه الصامت.

الأعزلُ يعشقُ بنات أفكاره الداعرات.

(*) دقائقُ... للغناء.

لسماع أغنيات كان يسمعها في صباه لكنها الآن لم تعد صالحةً حتى للبكاء فسرعانَ ما يملّ الإصغاء إليها ويغلق أسماعه مفضلاً

طنين ناموس الصمت فالأغاني التي كان يسمعها في صباه غدت عنده محض بوح لمشاعر استهلكها التكرار وعفّنها الاجترار فصارت كمثل مواء قططٍ في وقت تسافدها أو خوار ثورٍ وحشي.

مرةً حاول الأعزلُ أن يجرّب صوته في الغناء فعوى.

(*) دقائقُ... للحلم.

وهنا لا بد من توضيحِ أمرٍ مهم في حياة الأعزل وأحلامه فقد أدركَ من خلال تجاربه الصمتية بأن الأحلام الجميلة قد تتحقق في لحظةٍ يكون هو في غنىً عنها أو أنها تتحقق بعد فوات الأوان وهذا ما يفتح البابَ على الندم وللندم دقائقُ في يوم الأعزل ولكن متى كان الندم ذا نفع؟ خاصة وأن الأعزل لا يندم على ماضٍ بل ندمه على ما هو آتٍ لا يأتي لذا فالأعزل يحلم أحلامًا لن تتحقق لن تتحقق أبدًا أما أحلامه المؤجلة والتي فرضتها ألعابه الطفولية فقد تعبتْ ونامتْ وليس الأعزل بالحماقة التي تدفعه لإيقاظها فقد أدركَ بخبرته العميقة أنه من الأفضل أن يتغافل عنها حتى النسيان. هكذا هو واقعيٌ جدًا يتشبث بأحلام لن تتحقق أبدًا.

(*) دقائقُ... للرسم.

طلبَ معلم الرسم من تلاميذه أن يرسموا منظرًا طبيعيًا. رسم التلاميذ سهولًا وخيولًا أنهارًا وأشرعةً سماءً زرقاء وشمسًا ضاحكة... إلخ إلا تلميذًا رسمَ وجه شيخٍ بلحيةٍ طويلة وعينين كبيرتين تخرجان عن مساحة الوجه ويلوح فيهما غضب وحقد. أدركَ المعلم ما يرمي إليه هذا التلميذ المشاكس ذو العينين الغائرتين

لكنه لم يجرؤ على السؤال.

ثانيةً طلب المعلم من تلاميذه أن يرسموا (طبيعةً صامتةً) فلم يكن من التلميذ نفسه إلا أن سلّم ورقته بيضاء. غضب المعلم وسأل التلميذ مؤنبًا: "ما هذا؟"

تطلع التلميذ بوجه أستاذه وقال بصوتٍ واطئ يفتعل البراءة: "لم أرسم الطبيعةَ بل رسمتُ الصمت".

أخفى المعلم غضبه لكن حينما تكرر الأمر شكاه إلى الهيئة التأديبية في المدرسة مدعيًا بأنه مشاكس وقح ويتجاوز المحظورات. انقسم أعضاء الهيئة بين (الإعجاب) و (الاستهجان) فقال بعض منهم (مجنون) وقال بعض آخر (عبقري).

الآن في عزلته يقضي دقائق في الرسم لكنه لم ينجز لوحةً واحدة ليس لأنه بلا موهبةٍ بل لأن روحه عصيّة على المجاراة فهو لا يقتنع بالأشجارِ المائلة والأوراق المتساقطة. يريد أن يرسمَ العاصفة.

(*) دقائقُ... للضحك.

الأعزل يروي لنفسه نكاتٍ أحيانًا ليست النكات التي سمعها قبل عزلته إذ أصبحت مُرةً وقديمة بل هو ساخرٌ متمرس لا يفلتُ من شراكه كائن أو جماد. قد يقطع ضحكته فجأة متذكرًا بيت شعر لأبي العلاء المعري "ضحكنا وكان الضحكُ منّا سفاهةً..." ولكن كيف له أن يواجهَ هذه السفاهة التي تسللت إلى كل كيانه بغير الضحك من السفاهة نفسها لذا فأن الأعزل لم يكن في ضحكه إلا ساخرًا بمرارةٍ يسخر بدءًا من النملة التي أنهكها السعي إلى الذي لم

يف بعهد عزلته فارتكب الكثير الكثير من الحماقات.

(*) دقائق... للسحر.

يقفُ الأعزلُ أمام المرآة. وبمهارة بهلوان يخرجُ أخطاءه. يرميها في الفراغ ويلتقطها ثانيةً أمام ضحك الجمهور وسخرية أطفال مرحين بوجوه تشبهه.

مرةً رأى نفسه يقفُ وسط ساحة واسعة يحيطُ به جمهور غفير بأفواه فاغرة وأعين تترقب المفاجأة. فركَ كفيه ثم أطلق من قبضته الفارغة نسراً راح يرتفع ويرتفع حتى غطى سماء المدينة بجناحيه فعمّ الظلام. ارتفع صراخ نسوة بينما توارى الأطفال خلف آبائهم الذين راح بعض منهم يحاول أن يثبت قدميه على الأرض مفتعلًا الشجاعة. زال الخوف شيئًا فشيئًا بعد أن ارتفع النسر أكثر حتى بدا نقطةً سوداء في السماء الصافية فراحت الأعين تراقبه وبدأ الأطفال يرمون قطعًا نقدية في قبعة الساحر مبتهجين والنسوة يطلقن همسات الإعجاب منشبثات بأذرع أزواجهن الذين انتفخوا زهواً. قبل أن ينفضّ المتجمهرون ارتفع زعيقٌ يصمّ الآذان كصوت صاروخ أو طائرة حربية فتسمروا في الأرض ثانية. بضع ثوان ثم سقط على الأرض نسرٌ ورقيّ. صفق الجمهور بإعجاب وراح يطالبُ المهرج بمزيد من الرعب وبمزيد من النسور الورقية.

بعد أن ينتهي الأعزلُ من دقائق السحر يجمع عدّته الوهمية ويدخل قبعته... ويختفي.

(*) دقائقُ... لاختبار الذاكرة.

لاختبار الذاكرة عند الأعزل طقس يشبه الصلاة. يجلس بوضعية بوذي أو جاثيًا على ركبتيه ميممًا وجهه إلى زاوية بعيدة في فراغ شاسع وفي يده مسبحته ذات الخرزات الكبيرة لكنه لا يبسمل ولا يحوقل بل ليشحذ ذاكرته كأن يعدَ المدن التي مرَ بها البحار التي وقف عند سواحلها الأنهار التي عبرها الفنادق التي أقامَ بها... أو يعدَ أسماء النساء اللواتي ضاجعهن في خياله.

الأعزل شيطانٌ يكمن في تفاصيل ذكرياته.

(*) دقائق... للتأنيب.

يُخرجُ الأعزلُ كائناته وينهال عليها بالجَلْد لا ترويضًا بل تطهير للنفسِ من أدران الماضي العالقة كالجَرب كمن يقضم أظافره ساهيًا متلذذًا بمشهد الدم وهو يسيل على أصابعه بسلأمياتها المتحفزة لخنق الفراغ.

يستمتع بجلد ذاته عن ذنوب لم يرتكبها ومتعته هذه ليست عن مازوحية بل إنه يرى ضميره شخصًا آخر يقيم معه في عزلته فيقضي معه بضع دقائق من يومه ينهال عليه بالتأنيب حتى إذا ما تمادى ووجد الأعزل نفسه في دائرة الاتهام ولم تسعفه مبرراته في الدفاع عن نفسه ينقضَ على ضميره طاردًا إياه من تفكيره محرزًا انتصارًا وهميًا على عدوٍ من صنع يديه.

لكنه وفي غمرة صراعه لا يعرفُ أيًا منهما ضمير الآخر.

(*) دقائق... لإصلاحِ الماضي.

يُعيد الأعزل الماضي ليس حنينًا إليه بل نحو نتاج حماقات

استمدت قوتها من سطوة الماضي واستبدت في الحاضر لتحيله إلى ماضٍ مستمر كأن يقترح نهايات جديدة أحيانا تدل على عبقرية في قراءة الواقع السياسي أو الاجتماعي وعلى طريقة (كان ينبغي أن يكون الأمر كذا...) أو (لو حدث هذا الشيء لكانت الأمور تطورت هكذا..) وهذا الأمر أكسبه خبرة عميقة في قراءة التأريخ ليس الحديث فحسب بل حتى الموغل في قدمه فقد يتخيل نفسه في فلك نوح ويبلغ به خياله ولباقته حدًّا يصل إلى إقناع الإله الغاضب على التخلي عن فكرته المدمرة أو أنه يتخيل نفسه حاضراً في حرب البسوس ليسحب جسّاسًا من ذراعه داعيًا إياه إلى حانة في مضارب حيادية وبعد أن يشربا كأسين من الفودكا العبسية أو علبتين من جعّة الطائي يقنعه أن يتخلى عن مسعاه في طلب الثأر وإن استعصى الأمر عليه ووقف عاجزًا عن إقناع المتخاصمين وفق براعته في طرح الحجة المغايرة فإنه لا يتوانى عن استخدام القوة كما حدث مع الرجل البدوي الجلف الذي كان سببًا في الكوارث التي حلّت به وبأهله وبسببه هو الآن يعيش على طرف الأرض الشمالي أعزل وحيدًا إذ أعياه غباؤه وسلوكه اللامنطقي وعناده في رفض السير في الطريق السوي فلم يبقَ أمام الأعزل سوى أن يتقمص شخصية الخضر ويقتله صبيًّا إذ ما أن رآه خارجًا من كوخ أمه المطلّقة حتى استدرجه بتحدٍّ صبياني بعد أن تعرض إلى شرف أمه فثار جنون الصبي البدوي وقبل أن يستل خنجره كان الأعزل قد استبقه بضربة من بلطته شقت رأسه نصفين خمدت على أثرها أنفاسه. تركه جثةً هامدةً على

الأرض. سحبه من ياقة دشداشته ورماه على مزبلة ثم غادر القرية وهو يتطلع إلى الأفق الشرقي وقد خمدت النيران المستعرة التي كانت تتصاعد إلى السماء وتغطيها بسحابة من الدخان. عندها توقفت أمطار القطران التي هطلت على البلاد فهرع الناس من ملاجئهم نحو النهرين ليغتسلوا فيهما من السخام والدم الذي تيبس على أجسادهم وأكفانهم.

(*) دقائقُ... لاجتراح معجزة.

قد يقترحُ الأعزلُ وجوداً غير وجوده لا حدودَ ولا حواجزَ تمنعه هو حرَ الأشياء كلها ملك يمينه. يعيدُ الوجودَ إلى عناصره الخالقة فلا يجد غير عدمٍ ملفّقٍ لا يقنع غير الهشيم. مرةً حاولَ أن يخلقَ بديلًا عنه فكان شرطيًا قادهُ إلى برج مراقبة زوّده بقنينة عرقٍ وأغنية عراقية وتركه هناك. مرةً فكّرَ بالطيران فقدَّ إيكاروساً من حجر حدسه وريش الذاكرة وحينما همَ بالطيران وجدَ الفضاء أضيقَ من خرم إبرةٍ والشمس! حتى الشمس التي لا يكاد يراها في عزلته الصقيعية قد تحولتْ إلى جحيمٍ أذابتْ الحجر.

(*) دقائقُ للتفكير في كيفية إنقاذ الصمت من جنون الصمت.

هنا يتذكر تجربةً لا يعرف أين قرأها وربما رواها أحد ضحايا التعذيب في سجون ذلك البلد البعيد الذي هو الآخر كانت له دقائق خاصة في يوم الأعزل ولكنه أقلع عن ذلك بعد أن انتفت الحاجة للتفكير فيه فذلك البلد لم يعد له من وجود على خارطة شعورِ الأعزل. يقول الراوي (أعني ضحية التعذيب في ذلك البلد الذي لم

يعد موجوداً) بأن جلاديه قد وضعوه في مستنقع من النفايات والبول والبراز أياماً وليالي كي يجبروه على الاعتراف وقد اكتشف هو ورفاقه طريقةً للتغلب على الغثيان الذي تسببه الروائح الكريهة فكانوا يرفعون أصواتهم بالصراخ والأغاني (الأغاني الثورية بالتأكيد التي لم يعد لها الآن من وجود). هكذا اهتدى الأعزل إلى طريقة لإنقاذ الصمت من جنون الصمت ولكن قد تنفع هذه الطريقة لأعزل في صحراء أو غابة فكيف به وهو يعيش في الزحام وعليه أن يتبع قانونَ القطيع الذي لم يدرك حاجة الأعزل للصراخ؟ هنا تتفتقُ عبقرية الأعزل فالأعزلُ مبدعٌ كبير والحاجة أم الاختراع (كما يقال) وبحكم نرجسيته فقد أدركَ حكمةً خطها على جدران عزلته: [كلما اتسع الزحام ضاقت الأنا] لذا فقد استطاع أن يكتشفَ صراخاً صامتاً ينقذه من غثيان الصمت ويحمي حنجرته المعطلة عن العمل من التمزق.

(*) دقائقُ... للمشاكسة.

الأعزلُ مشاكسٌ بالفطرة خبيثٌ وإنْ أظهرَ الترفعَ والعفة حتى قبل عزلته كان إذا رأى صبيًّا يركض حاولَ عرقلته ليحول دون وصوله للغاية مدعيًا البراءة أو البلَه. في عزلته استنفد كل وسائله للمشاكسة ولم يبقَ سوى العزلة نفسها فعلى الرغم من مقته الشديد للغوغاء إلا أنه خرجَ مرةً في مظاهرةٍ للدفاعِ عن الحيتان. حملَ لافتةً كتبَ عليها "لهم عزلتهم ولنا عزلتنا".

(*) دقائقُ... لإصلاحِ الخلل.

يظنّ الأعزلُ بأنّ خللًا ما في الطبيعة فثمة أشياء موجودة هنا كان ينبغي أن تكونَ هناك والعكسُ صحيح وثمةَ أشياء موجودة هنا وهناك كان ينبغي ألا توجد أصلًا وثمةَ أشياء تبحثُ عن وجودٍ لها وثمةَ أشياء أخرى لا وجود لها إطلاقًا. يضعُ الأشياء كلها في كيسٍ ويسحبُ شيئًا شيئًا ويضعه في المكان (المناسب!) هنا أو هناك حتى يُتمَّ لعبته. يتطلعُ إلى الأشياء بتمعنٍ فيرى أن ثمةَ خللًا ما لايزال موجودًا. وعلى الرغم من يقينه بوجود الخلل إلا أن هذا الأمر يثير في نفسه البهجة فهو يؤكد له صواب حدسه ويعزز اعتزازه بعدميته فوجود الخلل (في رأيه) دليلٌ على عبث الوجود. مبعث بهجته بهذا الاستنتاج هو أنه يتخلص من ثقل ما لُقن به منذ طفولته والذي سبب له رعبًا من تخيل أن بعد هذه الحياة القاحلة جحيمًا أبديًا.

(*) دقائق... للثورة.

في البدء كان الأعزلُ يفكرُ في أحوال الناس لكنه ذو نزعةٍ قيادية نرجسيّ يرى وجهه في النار لذا فهو قائدُ ثوراتٍ مقموعة جنرالٌ لا يرى في الأرضِ غير خارطةٍ يقلّبُ أقطارها بعصاهُ ويضحك غير أن للعزلة مقاماتٍ يرتقيها الأعزلُ.

ها هو يرفعُ عصاه فيرتفعُ صمتُ صمته أوركسترا تعزفُ مارشاتٍ أو انفجاراتِ أغوارٍ عميقة.

(*) دقائقُ... للَعب.

يعتدل بجلسته. يسحب نفسًا عميقًا من سيجارته ثم يدفع بطرف سبابته البيدق الأبيض خطوتين. ينتظر قليلًا ثم ينهض من

كرسيه ويلف حول الطاولة ليجلس في الطرف الثاني. بعد لحظات تفكيرٍ يدفع البيدق الأسود باتجاه عدوّه المتقدم. يعود إلى جلسته الأولى محركًا الحصان الأبيض... وهكذا يظل يتنقل من جهة إلى الأخرى والسيجارة لا تفارق شفتيه وعيناه تحدقان في الرقعة كعيني ضبع جائع يدور حول طريدةٍ تقاوم الافتراس. يفكّر أن يتواطأ مع أحد الفريق ضد الآخر ودونما تردد ينحاز إلى الجيش الأسود لسبب يجهله لكن سرعان ما يكتشف حماقته فينقذ الملك الأبيض من المأزق الذي استدرجه إليه لتنتهي اللعبة (كالعادة) إلى التعادل التعادل الذي يثير في نفسه الحنق والاشمئزاز.

والأعزل لاعب نردٍ ماهر لا خصم له غير المجهول الذي نسميه الصدفة أو الحظ أو.... لا يُفرحه الفوز ولا تؤلمه الخسارة فهو يدرك بأنها لعبة القدر العبثية التي لا تضمن كرامة ماهرٍ ولا هيبة خبير.

(*) دقائق.. لإخراج العزلة من عزلتها.

يشاهد الأعزل في بعض الأحيان التلفزيون. يتابع مباراة لكرة القدم أو نزالَ ملاكمة فيدركُ حينذاك جمال العزلة وفتنة الدائرة كزوجٍ نافرٍ يعود إلى أحضان زوجته.

هههههه

الأعزل دعيٌّ وكاذبٌ أحيانًا.

(*) دقائقُ... للشكوى.

الأعزلُ لا يشكو أو يتذمر بل هو يكره الشكوى ويعتبرها ضعفًا ودناءةَ نفس ولكنه إنْ شكا فإنه يشكو من ضيق الوقت وكثرة

المهمات التي تمنعه من إنجاز ما كان ينبغي إنجازه.

(*) دقائق... للأشياء.

ينفخ الأعزلُ لامعناه في صلصال العدم فيكون كائنات عدمية. يستوي على عرش عزلته ويصغي إلى كائناته وهي تسبّح باسم خالقها في جنة العزلة.

* * *

نعم.. نعم

هناك أمور يومية لا بد للأعزل أن يقوم بها كالأكل أو الذهاب لقضاء الحاجة فالمهمة الأولى شاقة جدًّا ولكن تخففُ من مشقتها المهمة الثانية التي هي من أجمل دقائق الأعزل فهي دقائق جميلة جدا حيث الهدوء سيد الموقف وهي كالدقائق الفاصلة بين قذيفة وأخرى بالنسبة إلى جندي يقف متحفزاً خلف الساتر الأمامي.

* * *

قد يسأل سائل وهو محق طبعًا: "ألا ينام الأعزل؟"

"بلى ولكنه ينام بكوابيس مفتوحة".

* * *

ملاحظة لقارئ بطران:

هذا نصّ كتبَه رجلٌ ضالعٌ في العزلة مشتتُ الفكر فإذا وجدتَ فيه شيئًا من الغموض العبث اليأس السودواية المازوخية ...إلخ فإن هذه المفردات هي مفردات أساسية في معجم الأعزل بل هي أبجدية لغته وتذكرْ أن لغة الأعزل صامتة.

ملاحظة لقارئ خبيث :

بلى الأعزلُ شهوانيَ يتعرقُ شبقًا وثنيَ ذو خيال خصب في تجسيد آلهات للفتنة يقلنَ للمستحيل كنْ فيكون... ولأن الأعزلَ عاشقُ نفسه فلا تعرف الغيرةُ طريقًا إليه وهذا أحد الأسباب التي تجعل الأعزلَ مترفعًا على الخلق ساخرًا من ضآلة أرواحهم وضحالة عقولهم لكنْ.. يقول الأعزلُ (لمنْ يقول؟) : جسدي شخصٌ ثانٍ إنْ رغبتُ في مصاحبته اختفى وإنْ رغبَ في مصاحبتي رغبتُ عنه وتعاليتُ عليه.

ملاحظة لقارئ أعزل :

هذا نصٌ مفتوح بإمكانك أن تضيف إليه ما تراه مناسبًا أو غير مناسب فيومُ الأعزلِ كما تعلم = ١٤٤٠ دقيقة صمت ولا بد من ملء الفراغات باكتشافات جديدة تلائمُ روح العصر ومتطلبات الحداثة وتذكرْ بأن الأعزلَ المشار إليه في هذا النص قد جردته الأسبابُ من أسلحته فاختارَ العزلة بمحض إرادته ولن يتنازل عن حرية اختياره مهما كان الثمن.

خاتمة :

قد يجرّبُ الأعزلُ الانتحارَ وهو فكرةٌ تراوده دائمًا لكنه يتراجع في اللحظات الأخيرة ليس خوفًا بل لأنه يستمتعُ بفكرة السيرِ على شفا الهاوية مغمض العينين ليحيا موته ويعرفُ جيدًا أن الموتَ نهايةُ الحياة ولا يريد لهذه اللعبة أن تنتهي فهي بكلَ مساوئها لعبةٌ مُسلية ولا تخلو من جمالية تستحق البقاء.

كتبت النصوص بين عامي ٢٠٠٣ و ٢٠١٠

حميد العقابى

- ولد عام ١٩٥٦ الكوت / العراق
- غادر العراق عام ١٩٨٢ .
- أقام بالدنمارك منذ عام ١٩٨٥ .

*** صدر له:**

- في الشعر:

- أقول احترس أيها الليلك ١٩٨٦ - طبعة شخصية ـ دنمارك
- واقف بين يدي ١٩٨٧ - اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق
- بم التعلل ؟ ١٩٨٨ - دار الأهالي ـ دمشق
- تضاريس الداخل ١٩٩٢ - دار الأهالي ـ دمشق
- حديقة جورج ١٩٩٤ - دار قوس ـ كوبنهاجن
- كمائن منتعظة ١٩٩٨ - دار الجندي ـ دمشق
- الفادن ٢٠٠٥ - دار ألف ـ مدريد
- صيد العنقاء ٢٠١٤ - دار الجمل / بيروت

*** في النثر:**

- أصغي إلى رمادي / فصول من سيرة ذاتية ط١ دار الينابيع ٢٠٠٢ - دمشق ط٢ دار الجمل ٢٠٠٣ - كولن / ألمانيا
- ثمة أشياء أخرى - قصص ٢٠٠٤ - دار نينوى ـ دمشق

- الصلع - رواية ٢٠٠٧ - دار الجمل - كولن
- أقتفي أثري - رواية ٢٠٠٩ - دار طوى - لندن
- الفئران - رواية ٢٠١٣ - دار الجمل - بيروت
- المرآة - رواية ٢٠١٥ - دار ميزوبوتاميا - بغداد
- التيه - تأملات ٢٠١٥ - دار ميزوبوتاميا - بغداد
- القلادة - رواية ٢٠١٦ - دار الجمل - بيروت

المحتوى

- اللعبة 7
- البديل 13
- الجدار 15
- أولياد ٥٦ 17
- القطار 19
- القتلة 25
- الوصلة 27
- الفزاعة 33
- بنتُ السقا 35
- المجهول 39
- الغريق 45
- النجم 49
- الفكرة 53
- (.....) 57
- الخطة القديمة 59
- دُخان 65
- سرّ اللعبة 69

- النهد 71
- الفصل الخامس 75
- ميووووو 77
- اللصوص 81
- أولادُ الكلب 85
- عبّاس بن فرناس 87
- هايكو 93
- النغل 95
- الفائض عن الحاجة 97
- المرآة 99
- المهرج 101
- IO2 103
- المقهى 109
- الحلم 115
- كوابيسُ النائم على المصطبة 117
دقائق الأعزل 121

مكتبة
حسين السكاف
موبايل : 0045 27440907

يؤنّثُ الفراغ.. ويضحك

لفّ خصلات شعرها خلف إذنها وراح يمسد شعر رأسها الطويل حتى هدأت أنفاسها فانقلبتْ بين ذراعيه. وضع يده على جبينها وحينما تأكد أنّ حرارتها طبيعية رفعها قليلًا وقبلها ففتحتْ عينيها وارتسمتْ على شفتيها ابتسامة هادئة. راح ينظر في صفاء عينيها السوداوين متمتمًا بكلماتٍ تخرج من أعماقه دون إرادةٍ منه، بل إنه كان حتى قبل دقائق يسخر منها ويكفر بقائلها. امتدتْ يدها الصغيرة تفلي لحيته محاولة التقاط الشعرات البيض التي انتشرت عليها. لمحَ في عينيها سؤالًا غريبًا وقد اعتاد على إلحاحها بطرح أسئلة غريبة يقف عندها عاجزًا عن إيجاد طريقة مبسطة لتوضيح إجاباته.

لوحة الغلاف: بابلو بيكاسو